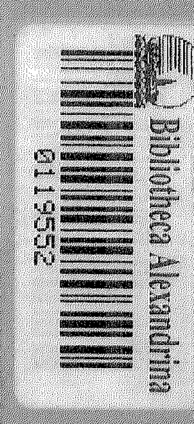
أندريه
مالرو

السقوط المستحيل

د. سامي الجندي








Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سقوط السنديان

طبعة
كانون الأول
١٩٨٣



للدراسات والترجمة والنشر
بوابة الصالحية ـ بناء دار المهندسين
هاتف ٢٢٨٢٥٥ ـ ٢٢٨٨٥٥

اندريه مالرو

سقوط السنديان

ترجمة: د. سامي الجندي

مراجعة: د. مشير حمودي



مقدمة

عندما يموت الفارس ينتحر حصانه ويتقصّف درعه وسيفه بفعل شيء خفيّ لاتفسّره الكيمياء ... ذلك كان إحساسي عندما رأيت مالرو آخر مرّة ، على الشاشة . لم يكن صغيراً عليها بقدر ماكان راحلًا . صوته كان يختلج في حنجرته : نزع معذّب طويل ! كانت الكلمات تخرج في مشقة من فم سيّد الحديث في هذا القرن من تاريخ فرنسا : قوة خارقة سلبته اجمل ما فيه!

في الباليه ـــ روبّال كان يلمع كشرارة . لاأنسى مرّة قابلته فيها ، كان الحديث فيها عن زنوبيا ، فطاف بالقرون والهزائم والانتصارات ، وتحدّث عن الغزاة : أحبابه الذين تدلّه بذكرهم ... اما زنوبيا فقد كان لها عاشقاً : « أتت أوروبا في المرة

الاولى مغلوبة ، أسيرة في أغلال ، وأريد لها أن تأتي هذه المرة غازية ، غالبة ، على بارجة بحرية ، فتطلق لها المدفعية من الارض إحدى وعشرين طلقة ، وتجيب البارجة بمثلها » كان يقفز من عصر الى عصر . ومن أثر الى بطل ، من مدينة ماري الى صلاح الدين ، ومن متحف دمشق الى أباطرة بيزنطية .

كل ماقاله أو فعله ، فعله في عشق عظيم استبد به كلّه ... يرود أرجاء الارض ، ثم مايلبث أن ينهد إلى سفر آخر . المطاف الوحيد الذي أستقر عنده ووجد فيه طموحه هو الجنرال الشاسع :« اذا لم افكّر فيه فبماذا افكر ؟ »

ترى ماكان يريد مالرو من كل هذا السفر ؟ من الصين الى الهند الصينية ، الى الاتحاد السوفييتي ، الى الولايات المتحدة ؟ ومن الجري وراء الثورات ؟ بلى ، الجري وراء الثورات لانه كان منها دون ان يكون ... مقاتلا دون عقيدة ، ودون انتساب

قرأت غالب ماكتب . لم أجد فيه إيديولوجية : نفثات من هنا وهناك ، مترابط حيناً ومتناقض حيناً آخر ... ولئن استطاع النقاد تفسير اسبانيا ، فبماذا يعللون طائرته فوق سبأ ؟ أهي أنانية المغامر ، أم حب الاكتشاف ، أم ريادة المجهول ؟

انتسابه الوحيد، كان إبّان المقاومة إلى فرنسا التي توحّدت مع الجنرال ... انتساباً أكثر من عضوي ، لانه دون اختيار ... الى القدر والتاريخ ..

بعد ان أقلع الجنرال من المرفأ ، تهاوى عالمه جميعاً : بومبيدو والسرطان ... ورأيت كوف دوميرفيل يعبر الشارع ، زائغ البصر . استرعى انتباهي انه لم يزرّر سترته . كيف يحدث مثل هذا الامر ؟ في الكي دورسيه كان رجلا بلا عيب . كأنه من القصر طرازاً وتزييناً وكأن القصر منه ، كلاهما ملك للآخر . أنيق حتى الدّقة . مختصر حتى الصمت . جمله كانت تغادر الصمت ، كي ترجع اليه — قبل ان تستوعبها .

لماذا إذن هذه السمنة قليلاً ، وبعض هذا الانحناء ، وهذا التحديق الى اللاشيء : فارّ من جنازته ؟

أراد التليفزيون الفرنسي ، ان يسجّل بقية من مالرو — الذي كان الجنرال يقول عنه : صديقي العبقري — قبل موته . لم ينس المذيع ان يلوم الادارة في تقديمه له ، لانها لم تفعل من قبل ، حين كان في ريعانه .

لم أستطع ان أفهم أدبه الا حين قابلته . لم يكن إعجابي

كبيراً برواياته . أهميته في حديثه . كان يلعب بالكلمة . يرقّصها . يكتشف فيها ألقا خبيئا على العيون . لكل كلمة معنيان أو معانٍ . يجمع بين لمعانها الضئيل ، فتجيء الجملة مضيئة .

كان في الحادية والعشرين من عمره حين التقى ، لأول مرة بأندره جيد . وصمت هذا وتكلم مالرو . حتى اذا استغرب صديق له أجاب : « تعلّمت كثيراً من هذا الفتى! »

عندما استطاع ان ينقل حديثه الى الورق بلغ مجده . كان يهزّك من الجذور . يأخذك من يدك الى حيث يريك الحياة من زاوية جديدة ، برّاقة دون جدوى . يلتقي دائما عنده الفرح بالعبث . لاينفصل أحدهما عن الاخر أبداً .

كان موضوع حديثه ـ الذي أذيع في حلقات ـ:

أسطورة القرون ، وأصغت إليه فرنسا في حنوّ وإعجاب وغضب : لماذا لم يجنبونا رؤية ضعفه ؟ أين صوته العذب والنبرة الحادة ، والابتسامة الساخرة المرّة ؟ لماذا لم يجنبونا رؤية ضعف القوي ؟ لماذا لم يفعلوا وهو في الأوج ؟ هكذا وهو في قعر الوادي .. على حافة القبر ؟

تكلم عن رجال القدر . قال عنهم انهم يبزغون ، هكذا .. دون انتظار . ونحن لانستطيع تعليل ظهورهم . ليس هو صدفة . يشبه الصدفة . في مراحل تاريخية ، متباعدة أو متقاربة . يحرضون الحياة . يعطونها معاني جديدة . ثم ينتهون . وتعاود الحياة سعيها الرتيب ، مع فارق بسيط ، هو أثرهم فيها : ستالين ، ماوتسي تونغ ، نهرو ، ديغول ، الخ ...

سأله المذيع : ثم ماذا ؟

أجاب لاهثا : ثم قوم آخرون . في مرحلة أخرى ... متى ؟ من يدري ؟

كأنه يتنبأ بعودة الديغولية ، أو ماهو قريب منها ، لانه يرى فيها التعبير العفوي العميق والوحيد في فرنسا . هل كان على حق ؟

آخر جملة من آخر تقرير كتبته في باريس ، بعد حوادث أيار هي :«لقد انتهت الديغولية ، وقريباً نشهد ميلاد فرنسا أخرى» .

منذئذ ، يدفعني هذا الرأي الى تساؤلات كثيرة .

الى أي حد كانت فرنسا الديغولية هي فرنسا ؟ الى أي

حد كانت فرنسا الديغولية هي فرنسا التاريخ ؟

كان الجنرال يبدو عائداً من القرون ، ومعه الحرس العتيق : كأنه فاتته فرص الجلوس على عرشه في تلك الحقب البعيدة ، فخرج من رماد التاريخ ، كي يؤسس الجمهورية الامبراطورية . لكن إلى أي حد يستطيع الفرد ان يضفي صفاته على الامة ؟ وماهو السر الذي يمكّن انسانا ما من ان يضفي صفاته على الامة ؟ وماهو هذا السر الذي يمكن انسانا ما من ان يتغلغل في صميم البشر ولا شعورهم ، حتى يتعرفوا على انفسهم في شخصه ؟ .. انه يوقظ شيئاً خفياً ، خالداً فيهم ، لم يعثروا عليه .. يكافحون كي يخفتوا صوته ، لانه يجعلهم يضطلعون بأمر عظيم ، قد تكون حياتهم ثمنا له ، أو على الاقل ثروتهم ولذّاتهم ... والبشر يفضلون الدعة . لكن من بوسعه ان يخنق صوت التاريخ ؟ والعائدون لاينبثقون من عالم مهجور أو يباب ، وإنما من أرض الخصب ، حيث يمرع المستقبل ... لكن هل الجنرال ديغول هو مستقبل فرنسا ؟... اننا نراها تعود قليلا قليلا الى الجمهورية الرابعة . وربما الثالثة . ومناورات الاحزاب . قليلا قليلا . لان محو الجنرال ديغول ليس سهلا . والامم تجدّ في حركتها

مع التاريخ ، كل مانسميه تقدّما أو تأخرا هو من مظاهر الديمومة التي تختلف أمائرها تبعاً لقانون صارم ، تغدو معه الاشكال والمقاييس لغواً بالنسبة الى التيار العميق البعيد ، والناقد يحكم على الاشياء بالمقارنة والتشبيه ، وهو مهما بلغ من العمق يستطيع الحدس ببعض ملامح المصير ، لا المصير . انه أبعد غورا ومدى، من ان يحيط به الفرد ؛ غير ان رجل التاريخ ... رجل القدر (عند مالرو) ، ملتصق به التصاقا مطلقا . كل فعل منه ، كل قول تعبيري عفوي وعميق عنه . عندما يستجيب له البشر ، فانما يستجيبون لمصيرهم . كأنه نداء دائم يرد به الناس الى حقائقهم : خطاب الدقائق السبع الذي أنهى به الجنرال ازمة ١٩٥٨ . وبدأ منه سياسة الصلح مع الجزائر ، واقامة علائق غير استعمارية مع المستعمرات . وخطاب الدقائق الست الذي أنهى به فتنة أيار ، وبدأ منه عزلته واستقالته .

في ساعات الحقيقة التاريخية ، حين يضلّ البشر في بحثهم عن حل ، تجيء الارادة القوية فتفرض في حزم حلّها . ويرتضي الاخرون ، لا لانه الوحيد الصحيح ، وانما رغبة بالخروج من

الضلال والحيرة ، وخضوعا للمصير بخطأه وصوابه ولهيمنة المعبر عن المصير .

لكن اين يقف الفنان من رجل القدر ... وقفة مالرو أم أراجون ؟.

مظاهرة المعارضة الكبرى في أيار ، قادها أراجون من الباستيل ، الى دانفير روشيرو ، وقاد مالرو ومورياك مظاهرة التأييد في الشانزيليزيه الى قوس النصر .

من بوسعه ان يدرك اختيار الفنان ؟

مالرو وجد رؤياه التاريخية في الجنرال . ارتباطهما لم يكن سياسياً . كان أحد الاجوبة الهامة عن تساؤل حضارتنا : انحلال أم ازدهار .. بداية النهاية أم استمرار التطور ؟ وحين يكمل رجل الخيال رجل الوقائع يصبح المصير أكثر وضوحاً .

ذهن مالرو ، كان شبيهاً بالسديم ، تختلط فيه الاشياء في حركة شبيهة بالفوضى . حين نادى بتبييض باريس ، ظنها الناس شطحة منه ؛ غير ان الجنرال أدركها فأحالها الى حقيقة ... الجنرال كان رجل الفعل الذي قلّما يخطىء في حسابه . عرف سرّ الرؤيا عند مالرو ووثق بها . كان يرسله الى من يزمع زيارته من

رجال العصر ، كي يأتيه بهويته الحقيقية ، كي ينظر اليه ، من الزاوية التي يطل منها على أشيائه . الحديث بينهما نفسه ، كان في أفق الخيال الذي التقى بالوقائع . كأنه مسرحية . ومن هنا قد يجد القارىء بعض الغموض أو مايمكن ان يخاله خطأ .

أتوخى من ترجمة هذا الكتاب نفس ماتوخّاه مالرو . الحوار مع رجل التاريخ يجب ان يقوم به فنان لا صحفي عادي ، علّه يخرج به عن منطق الحوار العادي ، علّه يرتقي به الى معنى الاشياء التاريخي الخالد ، لأن الفنان ، وحده ، يستطيع ان يرى رجل التاريخ ... لأن رجل التاريخ لايدرك نفسه جيداً إلا عندما يراه الفنان .



كولمبـي – الخميس ١١ كانون الأول ١٩٦٩

امحى تعب أيّام الحكم الأخيرة. أدار الجنرال ديغول بحركة منه أحد المقاعد الجلدية، قامته العالية، وقد انحنت الآن، تهيمن على الغرفة الصغيرة التي تلتهب فيها نار حطب. جلس عكس النور وراء طاولة فأل يحمل بساطها الأخضر علب أوراق اللعب. لم أحضر أبداً، في أيام الزهو، عشاء في الأيليزيه، في قاعة الشرف المبالغ بتذهيبها مثل قصور القرن الأخير، إلا ورأيت ذاك العشاء يقلع الى العدم بصحافه المائتين والخمسين، وموسيقيّيه تحت النجد[1] المنقولة عن «هيليو دورا» رافاييل، وموسيقى موزارت، وموكب آل هابسبورغ الأخير.... خروتشوف ونهرو وكينيدي في قاعة المرايا، وترميم التريانون وقد أزف فيه الرحيل...

اكتشفت من جديد، وأنا أصافحه، كم هما صغيرتان وناعمتان يدا هذا الرجل الكبير. يدا ماوتسي تونغ الحارّتان، تبدوان أيضاً يدي غيره.

بعد كلمات الترحيب انتقلنا الى مكتبه، هل يمتّ نبل الغرفة الى التناسق بين نسبها ونسب المكتب، أو النوافذ الثلاث وراءه، وانطباع بالفراغ تمليه الكتب في الجدار – أعمال برجسون الكاملة، صديق عائلته، وكتبي، يرينيها بطرفة عين – أم الى الجنرال أمام منظر الثلج الأسود والأبيض العظيم على كل فرنسا، ومقعد وحيد قدّامه..؟

قال لي من قبل، ونحن نقطع الروضة: «كل هذا كان مسكوناً

---

(١) نجد: Tapisserie: سجادة جدارية.

حتى القرن الخامس؛ ولاتوجد الآن قرية حتّى الأفق».

حجرة سانت برنار مشرعة على ثلج القرون والعزلة.

يعرف أن أصدقاءه وخصومه يتساءلون عن رحيله. أعلن عنه؛ وكفى. البلاد ترى تنافراً بين الاستفتاء، والمناطق، ومجلس الشيوخ، وكل آلة، آخر استشارة للرأي العام، ورحيل الجنرال ديغول، بعد انتخابات اكثريتها ديغولية. غير أن الجنرال ماكان بوسعه أن يجابه إلّا أحداثاً تاريخية -أو الموت- أو السر. رحيله الأول حيّر الناس، ونعرف أنه لن يعود بعد. ومايدعى بالسياسة الفرنسية مستمرّ، على هدي هذا الحارس الصامت.

قال: «هذه المرّة، أظنّ انتهى الأمر».

كأني أرى صالون فندق لابيروز الصغير سنة **١٩٥٨**، خلل الانحلال العام: «يجب ان نعرف اذا كان الفرنسيون يريدون أن يبعثوا فرنسا، أو أن يناموا. أنا لن أبنيها من دونهم، لكننا سوف نجدّد المؤسسات، ونجمع حولنا ماكان يدعى بالامبراطورية ونعيد الى فرنسا نبلها ومكانتها». كان يتكلم بعزم منيع، فيما يتكلّم اليوم باللهجة التي قال فيها عن إيطاليا، عام **١٩٤١**: «ألن يبقى منها، كما قال بايرون، غير أمّ مزينة لأمبراطورية ماتت».

نظر اليّ في ثقل:

-- ربّما لعب العمر لعبته حينما سافرت. هذا ممكن. أنت تدرك، أنه كان لي عقد مع فرنسا. كانت معي إن خيراً وإن شراً. ظلت معي طوال المقاومة. ولقد رأى الناس ذاك يوم وصلت باريس. كانت الموجة

العظيمة تدعمني، وعليها وجهت سفينتي. في لندن، رأيت السياسيين والعسكريين والكاليدونيين يصلون. ثم الفقراء، تجارة جزيرة سان: فرنسا. عندما يؤمن الفرنسيون بفرنسا، أوه كيف يكون الأمر... أمّا إذا انقطعوا عن الإيمان بها!.... أنت تعرف جملة البابا: الفرنسيّون لايحبّون فرنسا. وأخيراً...!

«انهصر العقد. لاضرورة، إذن للاستمرار. العقد كان أساسيّاً، لأنه كان دون شكل؛ لم يكن له شكل أبداً. لقد دعيت، دون حق وراثي، دون استفتاء، دون أي شيء إلى أن أحمل عبء الدفاع عن فرنسا وعن قدرها. لقد استجبت الى ندائها الآمر والصامت، لقد قلت وكتبت وأعلنت ذاك. والآن، ماذا...؟

إنه وحيد، وقد انحنى في هيمنة، قدّام الثلج الذي غطّى المدى القفر: «كان لي عقد مع فرنسا....» لماذا يقول فرنسا، ولايقول الفرنسيين؟ مع ذلك، استمر:

« بات الفرنسيون دون طموح وطنّي. إنهم لايريدون صنع أي شيء من أجل فرنسا. لقد سليتهم بأعلام، جعلتهم يصبرون على انتظار ماذا، سوى فرنسا..؟..».

كان عمره أربعة وعشرين عاماً سنة **١٩١٤**، ولقد تساءلت دائماً إذا كان لا يختلط عنده مايسميه بالطموح الوطني بإرادة الانتقام من فتوّته... غير أنه أضاف:

«الانكليز أنفسهم باتوا دون طموح وطني.

جرّب الكتّاب كثيراً الوصف بعلم النفس، لكنه يبدو لي، في

حالته، عبثاً. إنه حاد الذهن وفي أحيان عرّافة «سوف يلجؤون ذات يوم الى الباسكيين عندنا لإنقاذ الوطن» غير أن ذكاءه راجع الى مستوى تفكيره (وهو ماكان يدعوه شاتوبريان بذكاء عظمة الروح) اكثر منه الى نفاذ نظره، ولو أن هذا لاينقصه؛ راجع أيضاً الى ذات وسواس، أفترض أن كبار مسيحيّي القرون الوسطى، مثل سان برنار، امتلكوا ذكاء الدعوة. إنه مسكون بفرنسا، كما كان لينين مسكوناً بالبروليتاريا، وماو بالصين، ونهرو بالهند. خصص لها أوّل جملة من مذكّرات الحرب، وأعتقد أن فرنسا كانت في قلبه دائماً أبسط من أميرة الأسطورة التي يتحدث عنها، إنها هي التي تزوّج منها قبل إيفون فاندرو، لقد بلغت مأساته شأواً قصيّاً، فهي قريبة من مأساة الزعماء الشيوعيين الذين انفصلوا عن الحزب. والجنرال ديغول بعيد بعيد عنّ الظن أن فرنسا خانته من أجل خلفائه.

قلت: «لكن، متى كنت، في الأشياء الأساسية التي حققت، غير صاحب الأقلية...؟»

- ألم يكن ذلك شأنه في ١٨ حزيران، ومرّت عديدة مع تشرشل، وبكل تأكيد مع الأمجو وجيوش ايزنهاور، وبين مظليّي سنة **١٩٥٨** والمتظاهرين من الباستيل الى الناسيون؟... كان يقبل كل ذلك في مرح؛ وبالمقارنة مايعني استفتاء حول المناطق ومجلس الشيوخ؟... ربما كان الفرنسيون حمقى، تلك اللحظة؛ لكن ماذا فعل هو غير إكراههم على الاعتراف أخيراً بفرنسا...؟

قال: «أوافق على اني كنت صاحب الأقلية؛ كنت أعرف أني

عاجلاً أم آجلاً، لن أكونه أبداً» ...

منذ أمد بعيد أتساءل مايعني الفرنسيون عنده شيئاً قلّباً، ولاشك، تقريباً مثل كل ماهو عميق، هل هم «أهل جزيرة سان؟» كانوا، بعينه، ممثلي فرنسا (كانوا يصلون، على كل حال، الى لندن مع الكاليدونيين[1] أم النساء اللائي كن يجدن طبيعياً إخفاء أجهزة الإرسال في غرف خياطتهن أو آلاتهن الكاتبة، وهنّ يعرفن أنهن يجازفن بسجنهن في رافنسبروك؟ أم جماهير القرى بعد الإنزال، أم جماهير بايّو، أم الشانزيلزيه؟ أم الجماهير التي لقيها في كل مكان أثناء رحلاته الرئاسية؟ ... أم صلته بكل تلك القرون؟ إنه يدعو بالفرنسيين اولئك الذين لا يريدون ان تموت فرنسا.

أفكّر بخادمات بوليو اللائي كنّ يصغين الى إعلان الحرب في الراديو، برفاقي في الدبّابة – بالسّادن بونّو وشرشوره[2] الجريح، ببرادي وطفله، بالأطفائي، ليونار حبيب النجوم؛ برجال المقاومة، وبالنساء ذوات الشالات السود، وكل منهن أمام قبرها، عندما كنا ندفن موتانا من كورتيز، وصاحبة فندق جرامات، ورئيسة دير فيلّفرانش؟... وسجين سان ميشيل دوتولوز، الذي كان يشده بلهجته التعليمية: «سياح!» عنصر الغستابو الذي كان يدخل زنزانتنا جاعراً: «إرهابيّون!» وأطفال رامون شان ودان ماري، يأتون ليلاً، تقودهم المعلمة، كي يزرعوا أعلامهم الصغيرة على أوّل موتانا، أو يضعوها على موتانا الذين بلاقبور.

– هل حكمت بأن العقد انقطع في أيار، أم قبل، حين أعيد

---

(١) سكان كاليدونيا الجديدة.

(٢) طائر.

انتخابك ؟

– قبل ذلك بكثير . عندها انتقيت بومبيدو .

ماأراد أن يقول ؟ إبّان النزاع البرلماني ؟ لدى عودته من أفغانستان ؟ (كان قال : احتفظت به) . إنه لم يلمّح الى الزمن الذي استدعى فيه بومبيدو ، أوكان هذا خطأ جليّاً منه . استمر :

– في أيار أفلت من يدي كل شيء ، بتّ من دون سلطة حتى على حكومتي نفسها ، وتغيّر كل شيء طبعاً لما استطعت نداء البلاد ، حين قلت : «إني احلّ المجلس» .

«غير أن هذا لم يطل أمره ..!..» .

«كنت أرى في المساهمة ، كما تعلم ، وسيلة لإيقاظ البلاد ، عليّ اجعلها تشعر بوجودها ، وبالتالي ، لهزّها ، غير أنها كانت اختارت ، والعمل لايجدي إلا تبعاً للاحتمالات التي لاتعود أبداً .

– لم أؤمن قط بالشراكة بين الرأسمال والعمل ، وبالتالي بالمساهمة ...

–لقد دافعت عنهما .

– منذ أن تدخل فعلاً حلبة الصراع مع رأس المال فإن نتائج هذا الصراع لايمكن التنبؤ بها . شأنها شأن نداء ١٨ حزيران ، وسلام الشجعان ، والجماعة[1] . أما عن الماركسية ، فقد أمضيت وقتي وأنا أقول لأصدقائي الديغوليين اليساريين : ضعوا في رؤوسكم أن كلمة تجمّع عند الجنرال هي رمز الأمل .

لقد سليته كثيراً عندما أجبت ، لاأدري أيّ أغبياء كانوا يصيحون

---

(١) الجماعة الفرنسية .

بأننا نحن الرأسمالية: «هل ذهبتم الى فيل ديف[1]، نعم؟ تلك ليست الرأسمالية إنها المترو!» وهو ليس والحق مدافعاً عن الرأسمالية، كما ليس مدافعاً عن البروليتاريا. لم يقبل بالتأميمات كي يرضي الشيوعيين: كانت التأميمات عنده وسيلة لبعث فرنسا. وهو يتّفق مع الماركسية حول الملكية الجماعية (يسمّيها بالوطنية) لوسائل الإنتاج، دون أن يتفق معها على الحفز لصراع الطبقات.

قال: «حبذا ذلك».

– لم تختفِ بالتأكيد المعضلة الاجتماعية، لكنها غدت ثانوية – لأنها أصبحت كذلك في العالم كله.

– إن العدالة الاجتماعية تبنى على الأمل، على حفز البلد المعنيّ، لاعلى الشحاطات.

«كانت المساهمة رمزاً، وأنت ترى ما أعني... غدا مستوى الحياة معزوفة كل البلاد... اتجهت اليه نصف السياسة العالمية. مع أن الأمر لايتوقف عليه وحده، لقد تحوّل مجتمعنا الزراعي القديم بوصول الفلّاحين الى الملكية، ولسوف يتحوّل أيضاً مجتمعنا الصناعي. والمساهمة كانت طريق هذا التحول، ولو أنه يتعثر قليلاً وانت تعرف جيداً أن فرنسا، عندما صوتت ضدّي، لم تزح المناطق ومجلس الشيوخ، وماتلاها، فحسب: لقد أبعدت المساهمة. لقد قلت ما كان عندي من قول. غير أن اللعبة كانت انتهت.

---

(١) اختصار لما معناه: ملعب الدراجات الشتوي.

لقد سمعت خطبته إلى جيش الجزائر.

«أما أنتم فاصغوا إلي جيّداً: أنتم لستم جيشاً من أجل الجيش، أنتم جيش فرنسا!» وخطبته عن تهدّم ماكنّا نسمّيه بالأمبراطورية؛ وخطبة ستراسبورغ، في الهواء المتجلّد الى جماعة من الضبّاط المعادين: «إذا لم تتبعوني، لن تستطيعوا أن تصبحوا غير جنود ضائعين!». ولقد قال لي، قبل أيام: «إن الحزم يقضي أولاً بألا نأبه لامتهان أو إهمال أهلنا لنا. يظن الناس أني لاأفهم معنى: نسيان الأُخوّة. أيظنون أني لم أعرف، بما يكفيني، طعم سمّ الاحتقار؟ إنهم بحاجة لأن يتعلّموا كثيراً! لكن يجب أن نقبل بفقدان كل شيء. وإلّا، ماذا؟ المخاطرة أيضاً، لا تتجزأ».

إنه يتكلّم اليوم بنفس العزم، لكنه يريد نفسه خارج اللعبة، سألته:

– لماذا استقلت، سيادة الجنرال، من اجل مسألة على هذه الثانوية، أعني مسألة المناطق؟ هل السبب هو العبث؟.

ثبت نظره فيّ من جديد:

– من أجل العبث.

إلى أي حدّ هو ماضي فرنسا، وجه بلا عمر، كالغابة التي وراءه يغطّيها الثلج، وقد تزوج منها الآن!.

لاوجود لشارل في مذكراته، وكذلك أمر الحوار معه، كان يعبّر عن قدر، وهو يعبّر عنه عندما يعلن طلاقه مع القدر، إن الحميميّة معه، ليست في الحديث عنه، الموضوع الطوطم، وإنما عن فرنسا (بطريقة ما)، أو عن الموت.

أستأنف قائلاً: حسناً فعلت أنك لم تعتزل في غد رحيلي. كنا

نعرف انك راحل .

– كان الدستور يقضي ألا يكون خلفك رئيس مجلس الشيوخ ، وإنما الحكومة .

– إذن حكومتك . وكان يمكن أن تحدث أشياء كثيرة ، قبل الانتخابات . ذلك كان غير واقعي ، على كل حال ...

اللاواقع بدأ قبل ذلك . كأني أرى آخر مجلس وزاري ترأسه الجنرال : مشاريع مراسيم دون أهمية ، الموافقة على تقاعد محافظ ، اتصالات . صمت وزير الخارجية قبل الظهر . ونهض الجنرال :

– ها قد انتهينا ، ايها السادة !... إلى الأربعاء القادم ، إذن . إلا إذا ... في تلك الحال ، تطوى نهائياً صفحة من تاريخ فرنسا .

ولقد طويت ...

استأنفت :

– في جلسة المجلس الأولى بعد رحيلك ، وخلال دقيقتين أو ثلاث ، وجدتني وحيداً في مقعد الوزراء مع كوف ، وشابان في الرئاسة ، ذلك اليوم الشاحب الذي تعرف : لم يجرؤ أي نائب على أن يكون أوّل الداخلين .

النور هنا أيضاً غير واقعي ، بسبب انعكاسه على الثلج . أعرف جيّداً . ذاك النور الأبيض ، لأنه يبدّل ألوانه كاللوحات ؛؛ لكن لاوجود للّوحات هنا . على الطاولة اصطفت بعض أوراق من مخطوطات مذكّراته ، ولاشك ، ملأها خطّه الصاعد .

– تكتب تتمة مذكراتك . وكتاباً ايديولوجياً ؟ .

– اكتب مذكّراتي، من ١٩٥٨الى ١٩٦٢. وبعدها مجلّدان آخران.

ألن تتحدّث عن عبور الصحراء.

– لا. حدثوك عن الإيديولوجيا لأنني لاأكتب سرداً تبعاً للتواريخ، انني اتكلم، كما في **مذكّرات الحرب**، عمّا فعلت، كيف، ولماذا.

افكّر أيضاً بفندق لابيروز سنة **١٩٥٨**. استمر:

– كم هو غريب أننا يجب أن نصارع لهذا الحدّ، كي ننتزع من أنفسنا مانريد أن نقول! مع أن الأمر سهل تقريباً عندما نتكلّم. كانت تقول كوليت: «صعبة هي، اللغة الفرنسية! الصفات!» كانت على خطأ، بالرغم من موهبتها،: اللغة الفرنسية، هي الأفعال، ثم الخلاص من هوس الكتابة...

إنه يلمّح للإيقاع الثلاثي، الذي يستحوذ عليه ويثيره، لم يستطع حتى الآن أن يتخلص منه أبداً.

– قيل لي انك تتطلّع الى نشر كلّ ماقلت منذ ١٨ حزيران: من خطب ومؤتمرات صحفيّة؟.

– ماعدا الغثّ الى المخاتير، على حافة الطريق. ولكنه حسن أن نعطي الأشياء في مواقيتها.

– قد يكون التأثير الجماعي فريداً، لأن نصوصك في لندن ليست خطباً، إنها مونولوجات موجهة الى جماهير لاترى... في اليوم الذي نقلت إلينا الإذاعة مجمل «الرسائل الشخصيّة» التي تنبىء بوضوح عن الإنزال، فكّرت بخطاب رودريك الليلي في **حذاء الساتان**: «أيها الضبّاط،

يارفاق السلاح، أيها الرجال المجتمعون هنا....» ولم أرو البقيّة، التي تستمّر في ذاكرتي:

«أيها الرجال المجتمعون هنا، انتم يامن تتنفسون تنفّساً غامضاً حولي في الظلام.

«وقد سمعتم جميعاً الحديث عن الرسالة الى روديك وعن الرغبة البعيدة بين تلك المرأة وبيني، وقد صارت مثلاً منذ عشر سنين بين العالمين.

«انظروا إليها، كأولئك الذين استطاعوا، بعيونهم وقد غدت الآن مغلقة، النظر إلى كليوباترا، أوهيلانة، أو ديدون، اوماري الإيكوسية..».

ونحن لم نر، على وجه الدقّة، شيئاً من الجلبة المحتومة لذاك الصباح الذي كنّا على موعد معه، منذ أجل بعيد، والذي عندنا جميعاً، سوف يشبه القدر.

قلت: فيما تنطفىء فيّ العبارات: «إن مايعطي كلماتك قوّتها هو مايميّزها عن الخطب. (حتى المؤتمر الصحفي، كان هو الآخر وسيلة جديدة للتعبير). الكاتب ايضاً لايعرف قرّاءه. وهو في بعض الأحيان، كما هو شأنك، يثيرهم... لكنّ كل كاتب عظيم مرتبط بمن سبقه، إلّا كلماتك، فهي ليست لها من سابقة، ماعدا واحدة. أنت تعرف فيزيلي: كيف سمع الفرسان، من تحت، سان برنار، الذي كان يتكلم، طبعاً، من دون ميكروفون؟ مع ذلك ذهبوا الى الحرب الصليبية.

«مع ذلك سوف تكون هنالك مفاجآت؛ فأنا لاأذكر أني

وجدت، في **مذكرات الحرب**: «إنه لطبيعي، له مايبرّره إطلاقاً، أن يقتل الفرنسيون الألمان في فرنسا: ليس لهم سوى أن يبقوا في بلادهم».

- نعم. عندما انتهي من المؤسسات، سوف يكون أيضاً، ماذا! ماعندي من أشياء يجب أن أقولها. عندما اكتب، ينتظر الناس، طبعاً، أن يعرفوا بماذا أفكر، وماذا فعلت! ولسوف أقوله. أريد أن أقول أيضاً ما حدث.

أعتقد أن الرجال هم الذين يصنعون المؤسسات، أكثر مما تصنع المؤسسات الرجال، لكني أعرف أن هذا الكتاب، وريث **مذكرات الحرب**، سوف يكون تبسيطاً رومانياً للأحداث- التبسيط، في الأدب والعمارة، الذي تملي به روما، بكل قوّة، نظامها- ونسيان أنه وضع دائماً عدة قطع حديدية في النار (وليست أية نار) كي يخرج من النار، حين يأزف الوقت السلاح الوحيد المجدي.

إنه ليس لاتينياً، إنه روماني، أي ضد ذاك تقريباً.

قال: «**أحبّ الفرسان الثلاثة**. إنها لاتقل جمالاً عن صديقك **القطّ بجزمة**، ونجاحها آت من أن الحرب مع انكلترا، ليست مدينة بشيء، لسياسة ريشيليو. إنها مدينة بكل شيء لجوهرتي آن النمساوية، اللتين استردهما دارتانيان. الناس يريدون ان تشبههم القصة، أو أن تشبه أحلامهم على الأقل. وأحلامهم، أحياناً، واسعة لحسن الحظّ.

قلت: «يوجد مجال في الأدب لم يدرسه النقد، بل اختلط لديه بالمذكّرات،: هو الكتب التي تروي مافعل المؤلّف. وليس: ماأحسّ به... لأن المذكرات هي غالباً بعث العواطف، اما رواية تنفيذ خطة عظيمة،

فإنها تفرض مشاكل اخرى، لو أن قيصر لم يكن صاحب **حوب الغاليين**، لما كان الكتاب أفضل أو أقلّ جودة ولو أنه يكون ساعتئذ من طبيعة اخرى؛ ولو ان **كتاب المذكرات** صاغه لاس كازيس من ذكرياته ولم يتكلم فيه نابوليون، لكان كتاباً آخر. لقد هاجمك الآخرون أحياناً، وأعجبوا بك غالباً، وبرأيي لاعلاقة بين **مذكرات الحرب ومذكرات ماوراء القبر**، نتيجة لسوء تفاهم، وكذلك سوف يكون شأن ما أنت في سبيلك لكتابته، فالوسائل لايوجهها نفس الهدف.

ومذكراته، أكانت رواية التمسك بفرنسا في سنة الإهمال **١٩٤٠**، أو في أمل **١٩٥٨**، هي بعيني، تراجيديا فيها ممثلان: الفرنسيون وهو. وفرنسا في الحرب، وفي السلم هي الرهان. ولقد عمد الى هذا الأمر مرّات عديدة ضد اكثرية الفرنسيين، وهو يكابد منه فخاراً مرّاً وخفيّاً. هل يأمل بأن تفهمه الأجيال، هل بات الآن وراء هذا الأمل والآخرين؟ أحلم بإنسان كأوديب يروي لنا عنه سوفوكليس كيف شاء أن يجعل طيبة ضد الطيبيين. لقد واجه لينين وتروتسكي في كرونشتادت نفس المأساة، وملآها بغضب: بروليتاريّون ضد البروليتاريا. يملك حزماً نادراً، غير أنه رجل على كل حال وليس شخصيّة مسرحيّة. قال لي ذات مساء: «لو أن الأمر لم يتعدّ التصفية، أكانت توجد الحاجة إليّ؟ كانت تكفي الرابعة[1] لاغلاق كتاب تاريخ عظيم». في **مذكرات الحرب** يبعده عن الأساسي خفر ريّاب، مما لايلتبس عليه مع ذلك، بعد أيام من عودته، وخلال مأساة

(١) الجمهورية الرابعة.

الجزائر: «أنت تعرف العقيد لاشوروا، أليس كذلك؟ لم أره أبداً. أرسله إليّ.» كان العقيد آنئذٍ من الرؤساء الأساسيين في إدارة علم النفس، ونوعاً من وزير إعلام محليّ، ومؤتمرات صحفية بلهجة بورجونيا، وصل الى ماتينيون[1] أصغى الجنرال إليه: «– حسناً. والآن يالاشوروا. ضع شيئاً بقوة في رأسك: لايدافع احد عن فرنسا ضد الجنرال ديغول» يخرج لاشوروا. «حين خطبت في الجزائر، قال لي الجنرال: «أدرك كل أمرىء هذه المرّة، أنّ فرنسا هي التي كانت تتكلم».

استأنف بعد صمت:

ماأردناه – ولماذا لانعطيه، بيني وبينك، اسمه الحقيقي: العظمة– انتهى.. أوه، مازالت فرنسا تستطيع، أن تدهش العالم؛ لكن بعد زمن. سوف تفاوض حول كل شيء، مع الأميركيين، بله الروس، مع الألمان والشيوعيين. لقد بدأوا. وبوسعهم أن يستمروا دون كبير معنى. إلا إذا حزب أمر! وفرنسا لا تنتظر شيئاً من ذلك. ولا الآخرون. ولا أعتقد أن الحالة هذه تدوم، سوف ترى. يستطيع البرلمانيون أن يحللوا العمل، ولايستطيعون أن يقرروه، لقد نهضت فرنسا ضد البرلمانيّة: ولسوف تندفع في خضمها، ولسوف تدافع عنها هذه، بنفس الذكاء الذي حاولت فيه أن اجعلهم يوافقون على المصفّحات!.

– لكن هتلر مات!

– لقد اختارت البلاد السرطان، فما كان بوسعي أن أفعل؟

---

(١) قصر رئاسة الوزارة.

لم يقبل أبداً أن يخلط بين البلاد والسياسيين، غير أنه قال الآن: البلاد، ولم يقل السياسيين.

العظمة، أنتهت ... لقد جدّد فرنسا بدءاً من إيمان، والإيمان ليس دينيّاً فحسب، كيف نصّر سان مارتان الهنغاري مقاطعاتنا في اللوار؟ كيف نصّر المبشرون الإيرلنديون ألمانيا؟... وهو لم يكن يكفيه إيمانه بفرنسا حتى يصبح الجنرال ديغول مع ذلك لم يكن ليغدو لولاها غير غالب دخيل على المنتصرين الحقيقيين، أو مغلوباً على بعض البطولة. حين قهر نابليون انهار تحت انتصاراته، لكنه كان مأخوذاً بنفسه، وليس بفرنسا. مرّة اخرى أجد في الجنرال ماسميته برئيس نظام ديني. إذا تخلت عنه فرنسا طاف في معتزله الميروفنجي فوق كليرفو، دون أن يفكّر في الدخول بخدمة كبير الاتراك. صلته بفرنسا، بعيدة عن أن تكون بسيطة، جوابه القديم للصحفيين: «لكني كنت فرنسا!» هو بصيغة الماضي. أما جوابه لتشرشل: «لو لم أكن فرنسا، ماكنت أفعل في مكتبك؟» هو بصيغة الشرط (ظاهراً). إن أحداً لم يعتقد، بعد ندائه الشهير، أنه **كان** فرنسا، وقبل كل احد هو. قرّر أن يكونها. من سواه كان يجرؤ على القول للفرنسيين، وقد سحقوا، وللعالم الذاهل، : «إن فرنسا موجودة!؟» سياسيّو الجمهورية الثالثة انقطعوا عن الإيمان بها. المارشال بيتان كان انئذٍ حامي خرائب، مؤثّراً، بعيداً عن أن يعني أن فرنسا موجودة، كان يعني أن فرنسا كفّت عن الوجود، والجنرال يحس بعنف أن نزع فرنسا لم يولد من ضعف أسباب الإيمان بها: الهزيمة، والديموغرافيا، والصناعة، الخ ...

وإنما من عدم القدرة على الإيمان بأي شيء مهما كان. قال لي من

ذي قبل: «مهما كانت ثقيلة الأسباب التي جاءت بها الشيوعية للروس كي يؤمنوا بروسيّا، فإنها لايستغنى عنها، لأنها جاءت بها لهم».

سألني نهرو في عياء أشدّ: «اليس ضرورياً أن تكون أقدامنا على الأرض وألا تظل رؤوسنا على مستوى التربة؟.....» كلمة عظمة، التي استعملها كثيراً الجنرال، ورددها بعده غالباً الآخرون معه أو عليه، آلت إلى أن تعني الأبهة، وفي الوقت نفسه تعبيراً مسرحيّاً عن التاريخ. غير أن غرفة مكتبه، آتية عبرتها من المدى العظيم القفر، ليست فرساي، وفكرة الجنرال عن العظمة لاتنفصل عن التقشف، الذي حافظ عليه حتى في استقبالات الإيليزيه لاتنفصل عن الاستقلال ورفض وعر للمسرح، أسرّ لي الشاه قائلاً: «كنت فتىً، عندما لقيته أول مرّة في طهران. سألته النصح. فأجابني: «صاحب الجلالة، سوف يشيرون عليك بالبراعة. لاتوافق أبداً! وليس عندي لك غير رأي واحد، لكنه مهمّ: ضع كل طاقتك في أن تبقى مستقلاً» لقد ردّد الناس كثيراً: «أن تكون عظيماً، هو أن تتزوج نزاعاً كبيراً»، لأنه جعل جملة شكسبير هذه حكمة كتاب **حد السيف**. قال لي: «العظمة طريق الى شيء لانعرفه».

ولكم ردّد من مرّات: «عندما تسوء كل الأمور، وتبحث عن قرارك، انظر الى القممٓ؛ فلن تجد عائقاً». وخلافاً لما يفترض أصدقاؤه وبخاصة أعداؤه، العظمة ليست أبداً مجالاً يعتقد أنه يمتلكه. وإنما مجال يخدمه، وهو يعرف أن المجال نفسه يخدمه هو، وهكذا كان سان برنار في خدمة المسيح– الذي كان ينتظر منه كثيراً... عند الجنرال، العظمة كانت أولاً عزلة، لكنها عزلة لم يكن فيها وحيداً.

قال : «وماسوف أفعل في شارع بروتوي؟ قد أكون عقدت عقداً مع الشقاء، لامع كل هذا العالم الجميل...

- ومع التحرير، ومع عشر سنوات من بعث فرنسا.

- إن مايجري الآن ليس حتى الشقاء. ولن أستطيع للمرّة الثالثة، أن أدرك فرنسا من شعرها في اللحظة الأخيرة.

- اتظن انك في كولومبي، لست تمثال أمير المؤمنين؟.

- على كل حال أنت ترى ما أعني بقولي.... لن أخرج عن صمتي إلا إذا وضعت البلاد موضع الجدل. يجب أن يعرف -وأعتمد عليك- أني غريب عمّا يجري. إنه لايعنيني إطلاقاً. هذا ليس ماأردت. إنه شيء آخر. عزمت على ألّا ألوم أحداً: ولأن تلوم أحداً هو ضعف. غير أن الصفحة طويت. ولسوف نعود مرّة اخرى الى الخريطة، نتتبع عليها مراحل الآخرين الظافرة، وأن نناقش فيها بحذق!....

إنه يأخذ على خلفائه غياب خطّة عظيمة، كما يأخذه على العالم ايضاً.

استأنف قائلاً: «صفقوا أيضاً للرئيس نيكسون، لأن آسيا مازالت تعتقد أن السلام ممكن، لكنّه لما ينتهِ من معزوفته. كل خطّة عظيمة هي خطّة بعيدة المدى، ولا أعتقد أن الولايات المتحدة، بالرغم من قوّتها، لها سياسة طويلة النفس، إن رغبتهم، ولسوف يتبعونها ذات يوم، هي التخلّي عن اوروبا. وسوف ترى!.

«أما روسيّا فإنها تريد ربح الوقت. أما فرنسا فليست لديها خطط أبداً. أنا لاأكتب للذين سوف يقرؤونني؛ فما زال الوقت مبكّراً. وعندما

أموت ، سوف تشهدون أوّلاً عودة الأحزاب وحكمها البائس ، غير أنهم سوف ينتهون إلى أن يقبّل بعضهم بعضاً .

– عندما جاء فوستر دالس قلت لي : « لن يكون هناك غرب » .

وليس ضروريّاً طبعاً أن تكون أوروبا هي الغرب ، أما إذا شاءت أن تجعل نفسها ضد الغرب ، فحظ سعيد .

– متى فهم الفرنسيون فوستر دالس؟ كانوا معي . وكفّوا عن ذلك . أوه ! انهم ليسوا أبداً مع الآخرين .

الآخرون .... عندما كان تروتسكي يتكلم عن ستالين كان يدعوه بالآخر . كنت وتروتسكي نتحدث وحيدين في رويان ، في بيته الصغير الذي يعجّ بالتلاميذ؛ والجرائد تزدحم على مكتبه . هنا ، الوحدة لاتأتي من أنّا وحيدان فحسب . أعتقد أني أفهم العياء الذي يعبّر عنه الجنرال بهدوء معدٍ ، ولو أني أقل فهماً لمنشئه . أذكر مجلس الوزراء الذي تلا اتفاقيات إيفيان . وانتهى المفاوضون من عرضهم . كانت عادة الجنرال أن يعطي الكلمة بادئاً بأمناء الدولة الشباب ، غير أنه عمد الى اليمين فالشمال ، وهذا ماجعلني أول المتكلمين ، ولم تكن تلك صدفة . قلت ان التعويض على فرنسيّي الجزائر يكلّف أقلّ من حرب دون نهاية ، غير اننا ينبغي لنا أن نعرف إذا كان ماتعنيه فرنسا لدى العالم ينسجم مع هذه الحرب .

دافع ميشيل دوبريه في حماس عن وجهة نظره ، التي دافع عنها جاك سوستيل بمرارة ، القضيّة هذه المرّة لم تكن نزولاً الى الشانزيليزيه ، وإنما لعبة أساسيّة تدور في الخفاء ، كنا نتكلم أمام الجنرال **الجامد** . تفصلنا سجف خضراء عالية ، عن عبور الغيوم الكسول المرسومة عليها ، بعد عرض كل

الأفكار – اخذ ساعتين – قال الجنرال :

–إن قدر فرنسا لايتلاءم حتمياً مع مصالح فرنسيي الجزائر .

إذن ، انتهت حرب الجزائر ، –وبدأت بعد قليل محاولات منظمة الجيش السرّي لاغتياله .

أكد لي لويس مارتان – شوفييه أن الجنرال قال له ، سنة **١٩٥٨** : « سوف نترك الجزائر » أما لي فقد قال فقط : « سوف تبقى الجزائر فرنسية ، كما بقيت فرنسا رومانية . لكن يجب ان تحترس ! » كنت مثله آنئذٍ ، أؤمن بصلح الشجعان ، كان يريد الاتفاق بأي ثمن – ويرى انه واصل أكيداً إليه . خطأ . لكنني كنت أعرف انه ينتظر أن يمتشق (حديدة) فرنسا من بين الحدائد التي تحمرّ في النار ، سمعته يقول ، إبان مفاوضات مولان : « هذا لا يعجب ميشيل دوبريه؟ وهل تظنون أنه يعجبني أنا؟ ...» .

إذن ، لماذا اختار أن يحوّل استفتاء عارضاً ، الى صراع لادواء له؟ لقد وضحت له العقبات التي اعترضت مشاريعه في إقامة سوق هال جديد ، حدود سلطته تجاه سلطة البلديّات ، لكنه كان مستعدّاً لمعركة أخرى .

كأن افكارنا الصامتة كانت تتجاوب ، سألني :

– هل تعرف بأن جرذان سوق الهال صارت في رنجيس؟ ...

أنا نفسي حيَّرتني هذه الجرذان التي هاجرت الى رنجيس ، كأن عبقرية الجرذان كشفت لها عن هجرة سوق الهال . هل هو رحيلها الذي ذكّرني بآخر احتفال للوزارة المؤقتة . تحت قوس النصر ؟ . وفجّرت

الطبول التي تدقّ للموتى من مارسيلييز ريد ، تحليق حمامٍ أخير تبعثر في الهواء ..

ـــ هل تقرأ الصحف . سيادة الجنرال ؟.

ـــ أوه : العناوين!...لقد قلت لك : لاصلة بيني وبين العرضيّ .

ـــ حتى مايجري في العالم ؟ جهدت ، في السابق ان ادرك الحماس الذي يغمرك في البعيد . كندا ، رومانيا ، حسناً ! أمريكا اللاتينية عند اللزوم. أمّا شيراز ؟ هؤلاء الناس لايعرفون أين تقع فرنسا على الخريطة ... ولم تلعب اية دعاية ، حتى ولا تلك التي لعبت دورا عظيما في زيارة خروتشوف مثلا .

أودُّ لو اعرف ماكنت تعني عندهم . بعضهم صاح «شاهن شاه» وبعض ، على ماروى لي السفير ، مايرادف «عاش رستم» ، أي مايكاد يعني عندنا «عاش رولان !» . تقمّصت إذن عندهم أحد أبطالهم . لكني أودُّ لو أعرف مايعني هذا . كان الجنرال ديغول ، عند هؤلاء الناس الذين يهتفون له .

ـــ كان يمكن ان يحدث نفس الشيء في اندونيسيا ... في امريكا اللاتينية الامر مختلف . ولماذا لايحبّني الاسبان ؟ إنهم يحبّون كثيراً دون كيشوت ! غير ان العالم لبس ايضا شحاطته . والفئران ترقص . انت تعرف انه دائما غريب ان يحبّك الناس ، حتى في فرنسا ، وفي أحسن الأيّام . وانا أخيراً أفهم نفسي .

ـــ سلفك ، لم يكن سياسيا لا في فرنسا ولا ايران ، حتى ولا كليمنصو ، ربما كان فيكتور هوغو .

ـــ الحق ، أقول لك ، ان ندّي العالمي الوحيد ، هو تان تان ! نحن الصغار الذين لانبيح للكبار خداعنا . والناس لايدركون ذلك ، بسبب هامتي ...

واستطالت نصف ضحكته في حركة متعبة من الكتفين . قال لي ذات مرة اينيشتاين ، عن غاندي :«إن مثل الحياة الاخلاقية السامية لايقهر» . لم يطمئني هذا القول . ان حياة الجنرال ديغول هي عالية بالتأكيد ، لكنها ليست سامية أخلاقيّاً بهذا المعنى . فما الذي يجعل منه شخصية أسطورية ؟ . انه ليس قائداً عظيماً ، وليس هو بالقدّيس ، انه ليس غالبا في حرب ، بالمعنى الذي كان عليه كليمنصو ، سياسي كبير إذن ؟ لكن ريشيليو وبسمارك ليسا أسطوريين ؛ والعمالقة السياسيون لايكونون كذلك أبداً . قلت له ان فرنساه لم تكن عقلانية ، وكذلك هو لم يكنه ، كان في شهرته ، يقيناً ، عديد من العناصر العقلية ؛ كان المحرّر ، والمعتزل المنتصر ، ومن لايلين ، وبعث الطاقة الوطنية ، وبالتالي الأمل ، حتى في سنة ١٩٥٨ ؛ الرجل الوحيد الذي استطعنا ان نواجه به الكارثة ، لا لأنه يصنع « وحدة وطنية » على طريقة بوانكاره أو دومرج ، وانما لانه كان يحمل فيه فرنسا ؛ ولأنه بعض من نبي ...طبعاً ، هنالك ايضا الموهبة : عندما تكلم في مجالس بريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة ، فقد تكلّم كفرنسا . وماكان ليأتي كلام رؤساء الجمهورية الرابعة ، بالضرورة ، سيئاً ؛ لكنهم ماكانوا ليصغي الناس إليهم .

كان حواره دائماً مع السياسيين حوار طرشان . الملكيون الذين عارضوا ، بكتاباتهم دانتون ثم سان جوست ، لم يكونوا يقيناً جميعاً

حمقى ، ولقد كانت ايديولوجية البعض منهم أقل وهماً من إيديولوجية سان جوست . لكن هذا لم يعرّف نفسه بإيديولوجيته ؛ عرف نفسه بمقصلة ستراسبورغ ، وبفلوروس . وعندما يعلن سياسي أنه كان على الجنرال «ان يفعل كذا » ، فليس هو بالضرورة على خطأ ؛ لكن قوله دون أية أهمّية . وكذلك شأن الايديولوجية الديغولية . وما سمعنا أنه يدعى في الغالب غير مشروط (لأن الخضوع لستالين ومحاكمه كان ، ولاشك مشروطاً تماماً) ، كان اللاعقلاني . الافعال لها فصاحتها ، التي ليست فصاحة الكلمة ، وان كانت تلك تزكي غالباً هذه ؛ نداء ١٨ حزيران من هذا القبيل . هنالك فعل خفي في العالم ، غريب على السياسة . ومن يعرف اسماء خصوم الجنرال في المكسيك أو في شيراز ؟ ومابوسعهم ان يعنوا فيهما ـــ ما داموا لايعنون شيئاً عند أهل المكسيك أو شيراز ؟.

أوهل كان واضحا مايعنيه الجنرال ديغول لدى الفرنسيين الذين تبعوه ؟.

بلى ، احد الرجال الذين كانت تختلف فرنسا عما هي عليه لولاهم . لكن ، وعند الاخرين ؟ في العالم الثالث ، جسّد الاستقلال ، وليس استقلالنا فحسب ، لقد أعاد فرنسا التي احبتها من قبل أمم كثيرة ، لا فرنسا **الأوبرآلّيس** (فوق الجميع) ، كان المدافع عن افريقيا ، وفي النهاية الفييتنام ، لقد ردّ إلى فرنسا قوّة مرتبطة به ، وبضعفنا أولاً : أصغينا اليه ضد العمالقة ، لانه لايستطيع ان يهدد أحدا ، لكن شيئا من هذا ، ولا حتى كل هذا ، يفسّر حماس ايران واحترام ماو ـــ ولا المعلّم المكسيكي الذي قال لجوكس ، وقد جاء يزور متحفه الصغير :«وداعا

ياعامل البطل ...» والمعلم لايدعو الجنرال ديغول هكذا لأنه يؤيّد سياسته . ان الشخص الذي يدعوه بالبطل ينتسب الى الخيال ؛ إن فعله لاينجم عن النتائج التي توصل إليها ، وإنما من الاحلام التي يجسّدها ، والتي وجدت قبله . ان بطل التاريخ هو أخو بطل الرواية ، والفارس ليس مرتزقا . وعن الصلب يتجلى جلال التضحية . ونحن ندرك ، أن بطل التاريخ لايعمل بهذا الوضوح ، فمجده راجع غالباً الى مختلف العواطف التي يحرّك . ان مجد الاسكندر أمره طبيعي (فهو اكبر غازٍ في عالم الغرب) على عكس قيصر ، لان مقتل هذا يؤكد مجده . ولئن لم تحطّم هزيمة نابليون أسطورته ، فلأن سانت هيلانة جعلت منه رفيق بروموثيوس . لقد غدا نابوليون حين انقطع عن ان يكون بونابرت ، مثلما أصبح ميكيل آنج ، ميكيل آنج ، حينما لم يعد بووناروتي : وهذا ماقلته ، منذ زمن ، ولقد صار الجنرال ماهو حين كفّ عن أن يكون شارل . والشخصيّة ليست « فردا » ، أفضل نوعاً ما .

فيكتور هوغو ليس فيكتور هوغو ، الذي جمّلوه . وربما كان هذا هو السبب ، الذي من أجله ، كلما تعلّق الامر بالتاريخ ، كان يتكلم الجنرال طواعية عن نفسه بقوله : ديغول . إن الإنسانية بحاجة الى ان تخترع صورة شارتر الملكية ، وإيللورا[1]، والمغارات الصينية ــ أو ماحفلت به السيكستين[2] من شخصيات تجلّت. والجنرال ديغول هو ، ولاشك ،

(١) معابد تحت الأرض .

(٢) كنيسة في الفاتيكان .

في شيراز والمكسيك شخصية من السيكستين . حدثني عنه ماو مرات عديدة ؛ ولا أظنّه حدثني كثيرا عن فرنسا . والجنرال لاينفصل عن قوى تبدو وكأنها ليست قواه ، بل قوى القدر . وهو عند أصدقائه واعدائه ، فيه شيء من الساحر ــ ومادامت جان دارك ، لدى محكمة روان ، على غير علاقة بالقديسين ، فلم لاتكون مرتبطة بالشيطان ؟ أذكر من جديد اينيشتاين وكأنه تحت ذراعه : « لن تكون لكلمة تقدّم اي معنى ، مادام هنالك اطفال بائسون » . وهو ماعبر عنه دوستويفسكي بمأساوية أشدّ : « إذا سمح العالم بأن يعذّب وحش طفلا بريئا ، فإني أردّ له هويتي » . ولقد كتبت سابقا ان أصغر فعل بطولي ليس أقل خفاءً من تعذيب طفل بريء . كأني أرى وجه برنانوس حينما قلت له ، عن معسكرات الابادة : «ظهر الشيطان من جديد على العالم» . مقاومتنا اجابت مهما كان الثمن (وفي بعض الاحيان أيّ ثمن !) عن تلك المعسكرات ، التي كانت تجهلها : الفيركور اجاب عن الموتهاوزن . والجنرال ديغول ، أجاب في هذا المجال عن هملر . عنا نحن الفرنسيين .أمّا عن الاخرين ؟ عندما سحق الجيش الفرنسي ، كان يعدّ أقوى جيش في العالم ، بعد ١٩١٨ . فهل كان بعثه على قدّ الكارثة ؟ إن مانحن في صدده لاتعبّر عنه الصيغ العسكرية . إنه نموذج إنساني لا اسم له ، لكنّه ربما لعب في التاريخ ، دوراً فريدا كدور البطل او القدّيس : الرجل الذي يفلت من القدر ــ وربما كان هذا هو تعريف الانسان الاسطوري .

وضع يده على الورقة التي يخطّها من مذكراته :

ــ مالرو ، منك إليّ ، أفي هذا ، حقاً ، مايستأهل العناء؟

كل أصدقائه ماتوا ــ واكثر أصدقائي أنا ... أضاف :

ــ لماذا نكتب ؟.

ــ ولماذا نعيش ؟ انت تعرف البهاجافاد ــ جيتا :« وماذا تفيد السلطة ، ماذا يفيد الفرح ــ ماذا تفيد الحياة ...»

رؤوس فيلة ماردة في الظليل ، وصرير نوارس على ارتجاج أمواج بحر عمان ... وأمامي هذا الثلج الذي يعود دون ان ينضب الى الأرض :

ــ سيادة الجنرال لماذا يجب ان يكون للحياة معنى ؟ آخر مرة لي في سنغافورة ، التقيت بأحد أصدقائي القدماء . كان يدير التعليم في الهند الصينية ، وبدأ يحوي مجموعة من الفراشات منذ ان عرف انه يواجه الموت . «غالبا ، ما أتبنى الآن ، وجهة نظر الفراشات ...» لقد وجدت منذ مائتين وستين مليونا من السنين ، ومتوسط عمر الفراشة يدوم شهرين . وهي تعرف مناطقها في ماليزيا وجزرها . وجدت قبل الانسان بكثير في جاوا وبالي .. وهي تتبادل ولا شك حكايات الفراشات : الزهور غادرت الأشجار ، كي تصبح عطايا وتزيّن الشعر... ولقد جاء البشر بعضهم في إثر بعض ، وتذابحوا : أمر طبيعي ، لقد تعاقبوا إذن . مجانين ... كن على يقين أن الجزء الوحيد ، الذي على بعض الجدّ عند الفراشات ، هو النساء ، لأنهن لا يتذابحن . تقول ايضا نحن ، ولاشك نفس الفراشات منذ أمد بعيد ، أما حكايات البشر البائسة ...

ــ وتاريخ البشر .

ــ ... تبدو لنا مسعورة ، لاعقل فيها... وإذا لم نحسّ بأن الكون تَبَعٌ للانسان ، كانت الإنسانية مغامرة بين مغامرات . ولقد استشهدت

ياصديقي المسكين ، بنصّ الهند المقدس وفيه تعمد الفراشات الكبرى ، بعد المعركة «**الى ان تحط على ميت المحاربين ، وعلى المنتصرين النائمين ..**»

ــ هذا جميل . واعترف أن الفراشات قد ترى في الحياة الإنسانية عرضاً . ومع ذلك هي لاتجيب عن السؤال الذي طرحت . ولو أنها في بعض الأحوال ، تحطمه .

واستأنف ، صدىً ساخر وربّما مرّ :

ــ لماذا يجب أن يكون للحياة معنى ؟.

كم من كائن بشري ، وخلال كم من القرون ، طرح نفس السؤال في غرف المدن العالمية الصغيرة بلا نور ، او تحت القبة الزرقاء المشتركة بين ملكات بابل ، وعبدات روما اللائي ينظرن موتِ الوليد من ابنائهن العبيد ؟. هزّ كتفيه بصورة لا تلاحظ :

ــ بماذا أجاب الفلاسفة منذ ان فكّروا !

ــ أليس الجواب ملكا للديانات بالاحرى ؟ إذا كان يجب ان يكون للحياة معنى ، فإنه وحده ، ولاشك ، الذي يستطيع ان يعطي معنى للموت ... أنت تعرف جملة اينشتاين : « أكثر مايدهش انه مؤكد ، بأن العالم له معنى تقريبا » ومن غير البديهي ان يكون معنى العالم هو معنى حياتنا .. ومن المؤكد ان حضارتنا ليست الاولى في إنكار خلود الروح ، وان كانت هي الاولى التي لا أهمية للروح فيها ..

ــ لماذا تتكلم كمن آمن ، مع انك دون إيمان ؟

ــ رينان لم يكن غبيّا .

ـــ أحيانا .

يعتقد أني مؤمن على طريقتي ، ويجول في خاطري انه دون ايمان على طريقته . قال لي : « هنالك عزاء ديني ، ولاوجود للفكر الديني » . حتى الهنود ، الذين يطفو عندهم ، الفكر الانساني جفاءً على أديم المقدّس ، لايقولون مثل هذا . غير انه يريد ان يقول ماتقوله الهند : ان العزاء ليس قبر ابنته (وهو ليس هيّنا عنده ، لأنه قال لي : « سوف أدفن مع ان») ، إنه ولاشك عنده ماينسجم مع تموّج الروح الذي يخلطه الفكر باختلاجه المسكين ... قال لي :

ـــ الموت ، هل تعرف ماهو ؟

ـــ آلهة النوم . أنا لم أهتم بالمنيّة أبداً ؛ ولا أنت : نحن من طينة البشر الذين قتلهم لديهم سيّان . ولو أن صلتي بالموت بعيدة ، عن أن تكون واضحة . عندما شدّني الألمان الى حائط جراما ، لم أؤمن بإعدامي وإنما بالهجوم من أعالي البارير (كنت على الهضبة المواجهة ، على ما أظن ؟) وقنابل المدافع تصلنا ، بموائها الذي يبدو وكأنه يبحث عنا . وانبطحنا ، واستمريت على رواية النكات ، وقطع انفجار حزامي قطعتين . هذا يعني ، عندما تكون منبطحاً : أنّهادنت[1]لولا قليل . عندها سكتّ . لماذا ؟ ربما لأننا لانتكلم مع الموت ...

« أروع ذكرياتي في هذا المجال ؟ هي ذكرى من إسبانيا ، دقيقة لأني عانيت كثيراً . كي أعيد لها الحياة في فيلمي . الطيارات المطاردة

---

(١) المنية .

الإيطالية تنقضُّ علينا أمام مصوّبات تلك الأيام الكبيرة . وبدأت أطلق النار ، فاهتز المصوّب مجنوناً ، وملأت برج الطيّارة جلبة من جحيم . واذا نملة تقطع كَسْلى المصوب الذي أطلق عبره النار على الايطاليين وهم يرشونني بقدر مايتمكنون : النمل أطرش .

«وبصورة ما ، البشر أيضاً .»

«غير ان النمال ، وهي الهادئة تحت الرصاص ، كانت تريد أن تنصرف دائماً ، عن أخذ مشاهد الفيلم ... وفي النهاية طلى احد المخرجين بالعسل صفحة المصوب التي تتجه اليها النمال ، وارتحنا ...

«وكما يقول اليوم الإسلام : هل تستطيع الحشرة التي تسحقها سيارة على الطريق أن تتصور المحرك الانفجاري ؟

قفز قط شارتريّ على المكتب . من اين جاء ؟ الباب مغلق .

قال لي الجنرال وقد غضّن في سخر جفنيه : «هل تعرف ، أنه يوجد قط أسود في الأمم المتحدة لايجرؤ أحد على طرده؟ عندما يتكلم أولئك السادة عن مستقبل العالم، يمرّ كي يعيد الأشياء الى نصابها الطبيعي .

وجاء قطّه إليه ، حين صار موضوع المناقشة .

– سيادة الجنرال ، هل تعرف كيف لا تفعل شيئاً ؟ .

– اسأل القط . إننا نفتح بالورق ونتنزه معاً ، إن أحداً لايملي على نفسه نظاماً بسهولة للتبطّل ، ولو أنه لاغنى عنه ، الحياة ليست العمل : إن العمل دون توقف يجعل المرء مجنوناً . أذكر ذلك . الرغبة فيه دليل سيّء . إن

أفضل مساعديك، لم يكونوا من الذين، لايستطيعون انفكاكاً عن عملهم.

ويداعب القطّ ذاهلاً. قلت:

أحد من عرفت من كبار المفكّرين مات بالسرطان وهو يقول لبولان: «ماأغرب الموت!» ويبقى موت الذين نحبهم...

استدار قليلاً ناحية مقبرة كولومبي، التي لاترى من مكتبه، والثلج يسقط وراءه، اعتقد ان ابنته آن دفنت هناك على التلة.

قال: «نفكر، بعد بعض الوقت، بموت الذين نحبهم، في رقة لا تفسّر».

لم يحدثني عنها أبداً، إلا بطريقة التلميح الحنون. في لندن، كان يفكر وهو ممسك بيدها ينزهها، وربما لم يكن منحى فكره على ماآل إليه، لو لم يولد أمام الشقاء.

استأنف قائلاً: «ليس صحيحاً، أن أعمق التجارب، هي التي تهيمن على حياتنا. في العمل، نعم؛ فيما عداه، لا.

ــ تجربة العودة الى الأرض، وقد عرفتها جيداً بعد سبأ[1]، ثم بعد ذلك شبيه إعدامي أثناء المقاومة، بدأت تزول في ذاكرتي.

ــ إن أفدح المصائب يبلى. غير ما نفكر فيه، طبعاً، عن الموت... الهامّ أن يدفعنا الموت الى التفكير في الحياة.

ــ سيادة الجنرال، انت تعرف مثلي الجملة الشهيرة: الحياة هي

(١) يتحدث عن رحلة قام بها بالطائرة فوق اليمن.

مجموعة القوى التي تقاوم الموت ، وهذا يعني أن الموت هو روح العالم ، فيما يبدو لي أنه ثرثرة بحت . هنالك فعلاً ، مسألة موتنانحن ، وما السبب إلا أننا أحياء ، وهي ليست بالضرورة مسألة الموت .

«أمام الإيمان ، يختلف الأمر ...

عندما حدثته عن الإيمان – الذي يتضمّن إيمانه – كما يفعل دائماً ، الاشارة التي يبدو أنها تطرد الذباب .

أجاب : « صغير القطط يلعب ، وكبيرها يتأمّل » .

وددت لو أداعب القط ، الجالس على المكتب .

أجبت :

– أو تتظاهر . الأطفال ، والرجال يتأملون ، أو يتظاهرون بالتأمل .

قال أحد أصدقائي وهو محلل نفسي مرموق : «الحياة ، هي شخص في المترو ، يحمل بطرف كل ذراع محفظة . وهو صاحب يهتم بأحسن تغيير في المحطّات ، كي يصل بأسرع مايمكن ، إلى أية محطة اخيرة ؟ إلى الموت . لكنّه يتمسّك كثيراً بمحفظتيه . »

كم عمر صديقك ؟ وجهة نظره لاتأتي من شاب .

– خمسة وستون عاماً ، تقريباً .

– مازال شاباً . وهو مع ذلك ، لايعلّق كبير أهمية على الطموح ، ولو أنه ما من مرض على مثل انتشاره ، امتلأت به الحقائب . إنه لشيء مدهش .

– والرغبة في أن تكون محبوبة ، أو محبوباً ، تمتّ إليه ، أو لم تلاحظ أنه ليس من الخطايا المميتة ؟ .

– إن الغرور والحسد يمكنان من العثور عليه، ومايهم؟ لقد فكّرنا طيلة قرون، في الضوء الذي يلقيه الموت على الحياة: العزلة الروحية، والدير بعد خمسين عاماً من العمر. ومنذ سنين، من إلقاء السؤال. وحيث يمحي الدين، يعيش العلم في القرون، والعالم يحيا يوماً فيوماً. إن صورة المحفظتين مثيرة، لكن الحياة لا تقوم أبداً على أن تستحوذ عليك المحفظتان، إنها تقوم على التخلّص منهما.

– ليس دائماً! المحفظتان تمكنانك من عدم التفكير بما عداهما، أي بالأساسي. هل نمسك بهما لأننا نحمل شيئاً؟ أو أننا نحمل شيئاً يمكننا من نسيان الرحلة؟ وماذا تحملان، إذا عنينا الطموح؟ لقد امتلأتا بأهواء اللحظة. وبعضهم يزيد على مافيهما النبوغ. ويتكفّل الموت بتهدئة هذا القَلِق.

– أو بتحوّله.

– نعم، نعم. لم لا؟.

– ولايضع من يريد فرنسا في حقائبه.

– أعدّت لفرنسا ما أعطتني.

– ثلج.

استأنف وهو يهز كتفيه:

– مايعني ان تنجو بنفسك من الحقائب؟.

– أن تعيش في الحاضر كما تعيش أنت في التاريخ؟.

– يمكن للتاريخ ان يبرّر الحياة، ولو أنه لايشبهها.

– مثل الرسم.

– قال لي ستالين شيئاً جدّياً رويته لك : « في النهاية ، لايربح سوى الموت » .

« هنالك ، مع ذلك ، التأمّل » .

قال لي هذه الجملة من قبل– ولم أفهمها أكثر من اليوم . لكنّ حياته الآن توجّهها **المذكّرات** .

قلت : «الكتابة أيضاً هي مخدّر مقتدر . المحافظ مليئة بصحائف بيضاء تريد أن تكتب ... عندما لا يدخل اللعبة أي تسامٍ ، فإن أكثر أحاسيس البشر خفاءً ، وإيلاماً هو في الغالب : كيف نفعل كي لا نفكر في الأساسي ؟ .

عندما يتعلق الأمر بك تظهر علينا ، تارة في غموض ، وأخرى في وضوح ، جملة نابوليون الشهيرة الى الحرس العتيق : «والآن سوف اكتب الأشياء العظيمة التي صنعناها معاً ... » .

– كان على حظّ عظيم !

وتغيّر صوته الساخر ، كأنه يعود إلى وراء :

ـــ كان يعتقد ان الاجيال المقبلة تستطيع ان تتفق معه ، حول ما يفكر بعمله ، وما كان يدعوه مجده . سوف نتكلم عن ذلك فيما بعد ، ان الكتابة تمكننا من نسيان المكلبة[1].وهذا هام .

ـــ لقد خلقت روما ، ولاشك ، اول حضارة ملحدة . لكنها متطيّرة . حين تكلم شيشرون ، او لا أدري من ، عن الحمامات

---

(١) رهط الكلاب وضجيجه .

المقدسة . قال انه لايحب تلك الطيور الموظّفة .

ـــ متطيّرة ككل الملحدين . لااكثر . بم كان يؤمن قيصر ؟ لا يقوله لنا اي شيء ما كتب ولا شيء مما كتب عنه . ولقد كتب كثيراً .

ـــ ولهذا أعتقد ان كتابتك مذكراتك ليست أمراً هيّناً . وهل تظن ، ان لم تفعل ، ان الاخرين ، لن يكتبوها ؟ «مايفيدك ، يا سقراط ، ان تتعلّم العزف على القيثارة ، مادمت سوف تموت ؟ ـــ العزف على القيثارة هو قبل ان تموت..»

« لديّ جواب ثانٍ . انظر فيما بدأ يجري حول فتنة ايار ، ان الضجة حول القديسة هيلانة ، تكفي للبرهان على ان مذكراته[1] لا غنى عنها .

« ومن ثم عندما نكتب ـــ أكتب **انا** أو **ديغول** ـــ فإن القارىء لايقرأ شهادتك كما يقرأ رواية امرىء آخر . ان العلاقة مقلوبة . الآخر ينقل، كما يخترع الروائي؛ وأنت تشهد، حتى ولو ظنّ القارىء أنك تخطىء . وأعيد جملتي؛ مذكراته لاغنى عنها .

« لقد قلت لي : الفرنسيون يرغبون ايضا بمعرفة . ماكنت ، انا أفكر بكل هذا . ان إيقاظ فرنسا ، والمقاومة نفسها ، لم يكن أحداثاً فحسب . لكن الحلفاء ، وبخاصة الامريكيين ، كان بوسعهم ان يحسبوا المقاومة فرقة أجنبية ، أو جيش مرتزقة ؛ وانت الذي جعلت منها شيئاً آخر . ومن إعادة فرنسا أيضاً . لقد كفت أيام قليلة ، كي يعني خطاب ١٨ حزيران شيئاً غير الدعوة الى إنشاء فرقة أجنبية . لقد قلت : ان قوى

---

(١) مذكرات بونابرت .

هائلة لمّا تعط ماعندها ؛ ولسوف نعد للقتال العدد الضروري من الطائرات والدبابات ، ونربح من أجل نفس الاسباب التي خسرنا بها . كان قولا لاينقض . لكن أحداً لم يتكلم عنه ، حتى في مجلس الوزراء العجيب سنة ١٩٤٠ الذي قرر ، نظريا إنزال هيريو بمظلة في لندن (مضحك!) ان قوة الانبياء هي في اعلان الحقيقة ، عندما يكون كل شيء ضدها . ان قوة خطبك في حزيران وكل ماتلاها يحفل بنفس اليقين النبويّ :«عندما تنهضون من بين الاموات ..»

اجاب في بطء :« الاشياء الاساسية التي قيلت للانسانية كانت دائما أشياء بسيطة ... الاديان .. وأنت ترى ماأريد ان أقول ... أما مايولد عنها فلا يمكن التنبؤ به ...

هل تثير العلاقة ، بين رجلين وحدهما ، في هذه الغرفة المحكمة الاغلاق ، بالرغم من المنظر الابيض الشاسع ، **التليباتيا**[1] المختلطة ؟ قال لي ، ذات يوم عن المقاومة :«وجب عليّ أن أضحي بكل شيء : كانت هي فرنسا .فإلى أي حد تبعتها فرنسا ؟» .

قلت : لماذا لم تعط خطبك في الحرب دورا اكبر للمقاومة في الوطن الأم ؟ هل كنت تعتقد ان السياسيين ، عاجلا أم آجلا ،سوف يلعبون بها ضدك ؟»

— أعطيتها دوراً كبيراً ...

عندما سألك صحفي سنة **١٩٤٤** أو **٤٥** ، من اين أتت أسلحة

---

(١) ترجمت Tèlèpathie بتخاطر ، وهو تلاقي خواطر شخصين .

الجيش الاول في القوات الفرنسية الحرة ، أجبت :« من الافريقيين . الذين طاردهم الشتاء ، ومن الامريكيين » كانت أيضاً مما أخذناه من الالمان : ان رشيشات جنود فرقة الالزاس — واللورين المعروضة في متحف ستراسبورغ هي رشيشات ألمانية .

— افترض اني كنت اجهل امرها يومئذ . كان عليّ ان أعرف .

تبدو المسافة التي تفصل ، غالبا ، بينه وبين محادثيه ، وكأنها تقوم بين جزءين منه ؟ فهو يقول : « كان عليّ ان اعرف » . مثلما يكتب : « ديغول » . استطردت :

— جرى شيء رائع في آخر شهور المقاومة : لاننا أيامئذ عرفنا ما ينتظرنا ، لقد قاتل ، المقاومون والمقاومات ، بعد توقيف جان مولان فعلاً أمام الجحيم .

ترى أكان يخشى وجود دجل كثير في المقاومة ، فما يريد ان يأخذ باعتبار الا ماكان يقيناً ؟ هل كان يعتقد ان المقاومة ماكانت ، لتؤمن وحدها استمرار فرنسا ؟ كان يقول :« اصغي الى صوت أمتنا العميق ، كما يسمع صخب البحر» . تحدث عدّة مرات عن أقبية الغستابو ، وأعمدة الاعدام . رأيت معه ، في الانفاليد ، العمود الذي لاكه الرصاص الالماني ، طوطم مخيف ، أحال كل معرض المقاومة الى وثائق . كان ينظر اليه مثلي ، غير انه يفكر ولاشك ، ان البون ليس شاسعاً ، بين الفرقة الأجنبية ، والانصار . قال لي : «كانت للمقاومة عدة دوافع ، ومنها ماهو في غاية النبل . وأعتقد ان فرنسا تعرف اني لم أقاوم سياسة ضد أخرى ، ولاحضارة مسعورة باسم حضارتنا ، وهذا أهم ، حتى ولا باسم المسيحية

بنفسها. لقد كنت مقاومة فرنسا. ولايمكن ان ينسى أحد اني احتفيت بكل الناس. ولولا ذاك، ماتجاوزت كوني رئيس حزب في المنفى.

«بعض البائسين يلومني على دعواي اني اضطلع بفرنسا؛ وما افعل سوى ذلك؟

اليوم تهيمن عليه الفترة التي عادت فيها فرنسا فاصبحت فرنسا، لانه يقضي ساعات كل يوم وهو يبعث ذلك الزمن. أولم تكن السنوات العشر الماضية غير انتفاضة أخيرة؟ أفكر بعلماء البيولوجيا الذين اجتمعوا في سان فرانسيسكو لكي يحضروا التجربة التي تجعل الحياة، تنبثق من المادة. الجزء الاول ربحوه، وحانت الدقيقة الساحرة، التي بدا فيها كأن الحياة تتردّد عن الولادة — ثم فشل نهائي

كان إهرنبورغ، يقول عن الجنرال، بالرغم من كرهه له: «في موسكو، كانت تبدو فرنسا وكأنها تتبعه على بعد ثلاث خطوات، فهل بعض النساء الشرقيات». ترى هل باتت دون حاجة إليه، لانها لاتريد شيئا؟. «بيرحكيم ليست، والحق، اوستيرليتز؛ غير ان الذين قاتلوا فيها كانوا مع ذلك شهودا.» هذا مايفكّر بنفسه. لكن ليس دائما.

«انا شخصية **العجوز والبحر**لهيمنغواي، : لم أظفر الا بهيكل عظمي».

عنده اليوم لامبالاة غريبة تجاه العمل الذي تحدث عنه سابقا: «رجال نهتف لهم يرمون فجأة العبء». بمن كان يفكر؟بقيصر؟ على الارجح. بسان جوست؟ لايعرفه جيدا، ولايحبه. لكن هل يمكن تحليل اللامبالاة بالعمل — وهي عند رجل العمل، ولاشك، لامبالاة بكل شيء

ـــ او هل تولد من إحساس أساسي. أسبابه هي تبرير له؟ هذا ماتؤكده منذ عشر سنين كيمياء الدماغ، على مايقول ماكس توريس... ألم يسمع، قبل رحيله الدقّة التي تنذر بالموت؟ كان يبدو انه لاينال منه. غير اني أتعرّف على همته، تحت هيكل **العجوز والبحر** العظمي. قال لي ذات يوم في صدق ظاهر: «اعترف بانك أقنعتني»، وفي اليوم التالي، فعل ماقرره قبل محادثتنا. لكنه في آخر الامر، يجمع خطبه، ويجيب النساء اللائي يكتبن له بمناسبة عيد سان شارل، ويطلب اليهن، للمرة الاولى، صلواتهن: واعطى تعليمات دقيقة الى السيدة ديغول، اذا حدث امر. يتكلم عن الموت في عدم اهتمام وقور، فيما كان من قبل يتحدث في شأنه ذاهلا عنه. قال لي عنه، في ضيق: احد الذين يعرفونه جيدا: « انه يشد رحاله »

انه مؤمن باعتزاله. اما انا فلا. إن مايكتبه هو تتمة حياته، عمل يجابه به العزلة التي يجوب كل عصر مع قطه. «على مدّ نظري لا يوجد أيّ بيت. بوسعك ان تتنزه ساعات فلا تلتقي بأحد». الذي لاشك فيه ان سان برنار جال مثله في هذا المدى القفر في الشتاء:

كليرفو هي فوقنا. قال لي جملة مدهشة من ناحيته، لكنها ربما عبرت عن احدى مجالاته الخفية، وهي اكثر إدهاشاً، لانه تكلم هكذا عن سان جوست: « كان سان برنار حتما عملاقا؛ فهل كان طيب القلب؟»

قريبا من كليرفو، كان بستاني يقطع البواسري؛ وأبعد منه محراث يبدو متروكا؛ كنصب في سينسيناتوس، عند الجنرال ديغول طبع لا هو

بالروماني ، وليس لواشنطن مثله، كما لايمت لعظام الرهبان المتوقدين ، الرفض قيمته السامية . ان تعريفه للحزم ليس بأن تقول «لا» فحسب ، ولكنه لايرتاح الا حين يقول « لا » .

يحملون له رزمة يفتحها ؛ **الخطب والرسائل**، مضروبة على الآلة الكاتبة .

ـــ هذا هو الجزء الاول ؟.

ـــ الحرب ...

غدا في هذه الساعة، سوف يكون في هذه الغرفة . ويجد نظريته ، عن حرب الثلاثين عاما التي بدأت في **١٩١٤** : « فوش وكليمنصو ، وديغول ، هم نفس الشيء»و :«وطننا في خطر الموت » ؛ ثم في غد تحطيم الاسطول الانكليزي للاسطول الفرنسي في المرسى الكبير : « باسم الفرنسيين الذين ظلوا احرارا في العمل تبعا للشرف ومصلحة فرنسا ، اعلن انهم اتخذوا ، دون رجعة ، قرارهم القاسي : اتخذوا ، دون رجعة ، قرارهم بالقتال» .و«في مسيرة الجند . يكاد العالم لا يسمع خطى بعض عسكرنا البعيدة ....» يقلّب الصفحات ويضيف بعض الفواصل :«فرنسا المقاتلة ، هي بالضرورة فرنسا ... ان إسمنت الوحدة الفرنسية ، هو دم الفرنسيين الذين لم يريدوا ان يعرفوا ، كما قال كورنيي «عار الموت دون ان يقاتلوا ...»جيشنا الافريقي ، وقد صدىء سلاحه ، وظلت قيمته لم تمس ...»ثم يلتقي بشبح هتلر المنتحر المأساوي ، وبفيشي التي باتت بلا ظل:

«منذ ان نادى الجبن بالعار بحجة تجنب العذاب ...هؤلاء

الواقعيون الذين يجهلون الواقع ... فيشي التي تمسك بيدي فرنسا فيما يذبحها العدو .. الاغطية التي يلقيها العدو والخونة على موتانا ... ان فم الزاعمين انهم يحكمون بلادنا لاينفتح الا لأمرها بأن تتدحرج في الطين ...»

وتتلو الصفحات الصفحات ، وهي تعبر عما يحدث كل يوم : « إن اعظم مجد في العالم ، مجد الرجال الذين لم يستسلموا ». و« في الاضطراب العظيم ، لايسوى ، ولايبرز ، ولا يعد الا الرجال الذين يعرفون كيف يفكرون ، ويريدون ، ويعملون تبعا لمجرى الاحداث الرهيب»

يتذكر احيانا التاريخ الذي صنع ، كما كان يذكر ميكيل آنج كنيسة السيكستين ؛ أو كمعركة لاتنتهي يمرّ فيها مالاينتهي من أشباح . وستأتي ساعة الغداء .

حانت .

سألني : «أما زلت تقرأ ؟»

* * *

وفيما يستقبل جوفروا دو كورسيل ، سفيرنا في لندن ، وقد كان قديما معاونه العسكري فيها ، تحدثت مع معاون اليوم والسيدة ديغول . بت لأتصوّر اني مازلت عندها الشيطان . ألأني رافقت الجنرال في اعتزاله ؟ ولأن هوائي[1] المرأة يلعب دوره ، ولأنها تعرف منذ سنين ،دون ان تفهم بوضوح ، علاقتي بالجنرال ، لاني الان في كولومبي ، ولأنها تحزر الود الذي توحيه إلي .(ودّ ولد لما قيل لي انها بعد محاولة الاغتيال في البيتي

(١) antenne

كلامار ، غادرت السيارة دون اية كلمة ، وهي ترمي قطع الزجاج التي سقطت على كتفها ، ثم تعيد قبعتها الى مكانها) . لقد عادت الى شبابها حتى لاكتشف وجهها الفتي الذي أحبه النقيب ديغول ، انها ، وهي التي كانت مرهقة من قبل ، تبدي اليوم فرحا ذا وصال بالاخرين ، غير غريب على صفاء الجنرال .

انها تتحدّث عن الايليزيه ، كما لو كانت تتحدث عن معسكر اعتقال :

ـــ إني أتساءل كيف استطاع الجنرال نفسه ، ان يطيق هذا ، طيلة تلك المدة .

إنها تحبه ، وتعجب به ، لكن بأية أنوثة !

أوه ، ان الجنرال يقول هذا ، طبعا ، لكنك تعلم ...!»

على الطاولة ، ألعاب أناة من اسلاك حديدية ، تشابكت فوجب حلها :

إنه هو الذي يتدرب من اجل يوم الاحد . بات الان اقوى من كل احفاده ...

انظر الى اسلاك الحديد التي يلعب بها الجنرال ديغول وهي تلمع ... فقد الضوء كثافته ، لان النوافذ هي ولاشك الى اليسار ...

تلقيت في الاسبوع الماضي رسالة ممتازة خلوا من التوقيع :

«هكذا إذن كان ديغول : صغار عقل ، وصغار روح ، وصغار قلب .

«وأكثر من ذلك ، وأبعد : ضيق في النظر ، ومغالطة تاريخية ،

وانغلاق على العبقرية اللاتينية !

«ان فرنسا (لافرنساه) ، فرنسا الضالة التي رأت معه وبه : هزيمتها سنة ٤٠ وقد تقنعت بالنصر ، والتخلّي عن الامبراطورية ، وقد انقلب الى مجد ، والخيانة الى شرف ، والجهل الى نور ؛ فرنسا التي رأت جيشها مبتوراً ومهاناً ، وعدالتها مقيّدة ، وثقافتها تفتتت ، واحتقر شعبها ؛ فرنسا التي قادها الى بلبلة كاملة ، وفوضى لاأمل فيها ، بالتناقض الفاضح ، الذي لايطاق ، بين كلماته السّاخرة والحقيقة ، فرنسا التي رأت أبناءها ينقلبون عليها ، والمدية في يدهم ، فيما يتلفظ هذا العجوز بكلمة «مسخرة»[1] فرنسا التي طردته وكانت ماتزال على بعض الامل.

«وكانت فرنسا تغفر له كل شيء ، لو كان على عظمة ما ، او نفحة من ملحمة ، او حتى من جنون . إنها لاتجد في «حاديها» غير ديناصور مخه صغير صغير ، أو رجل ليس فيه من العظمة غير غروره المسخ ، وعناده المسكين .

«وفرنسا واجمة تنظر الى هذا المسيو جوردان[2] في القرن العظيم : انشغاله في اقامته ، رحلاته في المقاطعات ، تعلقه البالي بالعملة ، وجوائز الفخامة ، والشرف ، او حسن السلوك التي يمنحها الى معاونيه .

«واخيراً وبعد أدركت فرنسا قطعا هذا المجنون بالعظمة ، الذي دناءته على قدر مراوغته ، يُقلقها في التو ظهور كتبه التي سوف تصبّ

---

(١) إشارة الى الخطاب الذي قال فيه هذه الكلمة ، وفيه حلّ البرلمان إبان اضطرابات أيار ١٩٦٨ .

(٢) أحد أبطال موليير .

الزيت على الاهواء التي انطفأت نصف انطفاء ، ولن يكون منها غير استياء امريكا ، وخيبة أمل روسيا ...»

امريكا ، روسيا ... قال لي من قبل : « إعلم اني في أية مرة ، أية مرة ! لم أجد ضدّي انسانا يمثل ، او يضطلع **بفرنسا**» شكسبير وحده عبر بقوة عن الحقد الذي تثيره الاقدار العظيمة . او بالاحرى ، تلك الاقدار التي مازالت تثير اليوم الحقد ، لانها اثارت الحب : مثل قدر جان دارك ، وقدر نابوليون ، ونحن نعرف الاغاني ضدّ الامبراطور : **هيا مالك يانابوليون– لن تعود ماري لويزك !**» وضد لويس الرابع عشر :«**العسكري العجوز يعود الى القرية — وتزوج القحبة العجوز** ...» والشتائم التي اغدقت على قيصر ، هي ولا شك وريثة ماوجه الى الاسكندر . ان كاتب هذه الرسالة ، وكم غيره ! ليقتل ، عن طيب خاطر ، لو أوتي الشجاعة ، الجنرال ديغول ، باسم البيتانية ، وقد نسي هتلر ؟ اما الشيوعيون ، وهم اكثر جدّا ، فيفعلونها باسم البروليتاريا . ان اعداء نابوليون لم يلقوا عناء في ايجاد السبب الذي يكرهونه من أجله وريشيليو ولينين وكليمنصو : ان تنتسب الى التاريخ ، هو ان تنتسب الى الحقد . سألني الجنرال منذ زمن ، بابتسامته المتغضّنة : « ألا تجد غريبا ان تكون ممقوتا (لايستعمل ابدا كلمة : مكروه ، عندما يتعلق الامر به) من أجل ما أنت عليه ، ومالست عليه بنفس الوقت ؟ » .

مأأنت عليه ...

أنا لا أعرف الجنرال ديغول . من يعرف من ؟ اننا ندعو معرفة الالفة مع ماهو شخصي لدى انسان ما : ألا يفاجئك عمل ما منه لم

تتوقعه ، وان تعرف الى اي جزء من ذلك الرجل ينتسب العمل . يضاف الى ذلك وهم وَصْفات النجاح : اي ان معرفة الجنرال هي العلم بالكيفية التي يتصرف فيها . خطوة اخرى ، وتغدو معرفة الرجل ، هي معرفة مايخبىء . « العظماء ليسوا عظماء عند خدمهم » أو ذلك حسد دنيء ، أم دعوة الى وحدة الشرط الانساني ، وتشابه من العمق بحيث يرجح على كل تسلسل في الرتب ؟ كانت القرون السالفة تقول « اسقط القناع » ويكتشف قرننا ان البحث فيما لم نفصح عنه هو اعمق من البحث فيما لايمكن الافصاح عنه . ان بحثه «فيما ــ يؤثر ــ علينا ــ دون معرفة منّا» ليس من اختصاص المعرفة ابدا . إنه يمت الى أحلامنا : ان نطير كما نمشي ، ان نجدنا في كل الامكنة معا ، ان نستطيع امتلاك كل شيء ، الا نموت ابدا .

لقد تصورت الملكيات الكبرى المجتمع ككوميديا ، والانسان فيها ممثل وجب « النفوذ اليه عبر ظاهره ». ان البورتريه الفرنسية تدعي نفاذ البصيرة لكنها اقرب الى الكاريكاتير او التعريف . على ان التفكير بماكس اوميري لايستدعي في تعريفهما اكثر من كاريكاتورهما (فكيف بصورتيهما الفوتوغرافيتين) ؛ او اكثر من حرفتهما . ان البورتريه ليست عملية عقلية ، انها نوع أدبي وفني . ان رسم البورتريه هو تثبيتها . ورسامو الوجه لايثبتون نفس الصورة ، ولايعتمدون نفس الالات . كل كائن لاينضب ، لكن كل امرىء يرتسم ظله ويتقطّع عندما يدخل الحزمة الضوئية للعمل او العواطف . وعندي أنا ، لما تملي فكرة «في زمن كذا ...» نفسها بنفس كثافة ما« رأيناه قبلا » . ولقد سجلت حديثي

مع ماكس لاني كنت احس به كشيء ماض . كنت اصغي الى كلامه عن الفرويدية ــ الماركسية ، كما اتخيل عبارات روح حساسة من سنة ١٧٨٨ عن الطغاة ، او كما كنت اصغي لميري : «كان ذاك زمن البونز المجنون ، لما شوّشت موسيقى سينغافورة اوامر قواد مصفحاتنا...» ومن هنا كان الاثر الذي يتركه فيّ رجال التاريخ . ان تجربتهم ترتبط بالانسان الجماعي ؟ وتجربة الجنرال ليست من نفس طبيعة تجربة ميري اوماكس . ان تجربة ربّان الطائرة لاتختلط بتجربة الركاب . انها اقل فردية بكثير . عند الجنرال يلغى الفرد ، او يريد ان يلغى . ان اسلوبه الملغي ، هو بارز على كل حال ، لان مثل هذا الالغاء ، يبدع اسلوبا قادرا ، لقد فاوض كثيرا لكنه لاينقاش أبدا . احيانا يدع لفكرة متعبة او محتملة ان تبزغ ، في غالب الاحيان يؤكد او يسأل . عند نهرو لم يلغ الفرد ، وانما امحّى بنفس الطريقة : بالتاريخ بـ « في زمن نهرو » التي لاتقهر . والهند كانت تمضي .

غادر الجنرال مكتبه وهو يقول لجوفروا دو كورسيل :

ــ والحق اني احب كثيرا الحرس القديم وكل هذه الاشياء ، ولكن ...

قالت مدام ديغول : ولكنهم جميعا باقون ! ...»

ــ ....لكن يجب ان يعلم اني لا علاقة لي بما يصنعون .

البورتو . وجدران صالون البواسّري ، مغطاة كما كانت من قبل ، بالكتب المجلدة ، وفوق الرفوف حوالى عشرة من مصابيح عمال المناجم ، وصور احدودبت لملوك ورؤساء دول قائمين على الامر أو ماتوا أو سقطوا : شان كاي تشيك ، وايزنهاور وملكة انكلترا ، وكيندي الى جانب

نيكسون . ولوحات (احداها من ماركيه) قدمت له في الجزائر .. كل ماعنده ارتبط بحياته : لم يشتر اي اثر فني . وجهاز تلفزة . رأيت آخر وانا اعبر ، في الصالون الذي على اسلوب الامبراطورية .

ومررنا الى المائدة

ـــ وماذا في باريس ؟ هل خرجت في هذه الايام ؟

تبدل صوته . كأنه يقول: استراحة . كما في غداءات الايليزيه الخاصة . كان اذا غادر المكتب الرئاسي ، الذي فيه خارطة العالم الضخمة ، لايتكلم في الاشياء الجادة . فيجيب بجملة وغالبا بنكتة . ومن هنا اضطراب جاراته ، اللائي كن ينتظرن تأملات في تاريخ العالم ، فيسألهن عن اخبار ابنائهن ، او آرائهن في اخر فيلم ناجح . غير ان الجنرال يخلق في كولومبي جوا لم اعهده ابدا في الايليزيه : جوا عائليا وحارا ، كأنه يجد نفسه ، في سرور ، ، سيد بيته .

ويحدثنا السفير عن حفلة البارون ريدي الراقصة ، ومسابقات النوادر :«كل هذا سخيف قليلا» ..

قلت : « تحيا نهاية القرن الثامن عشر وعشاءاته التي كانت تتوزعها كلمة الامير دي لينيو في فيينا ، وكلمة مدام بومبادور في فرساي ! في فيينا يحمل الساعي ، اللاهث طبعا ، رسالة الى امبراطور النمسا : «غرق رجل في حفر البراتر !» حفر دون ماء . ويقول الامير دي لينيو : «ماهذا صاحب الجلالة ! غَزل آخر!» كلمة ندّ ، تعرفونها : لويس الخامس عشر ...

وكان ينبغي أن تكون التتمة : « ...يلحمس لمدام دو بومبادور . » لكنّ لحمس لا تنتسب الى قاموس السيدة ديغول :

– ويداعب لويس الخامس عشر مدام دو بومبادور . فتأخذ يده ، وتضعها على قلبها ، وتبتسم ، وتقول : إنه هنا ، مالك ! ... »

عودة إلى القطّ الذي أسأل عن اسمه :

قالت السيدة ديغول وهي تضحك : « كان له اسم جدّ أنيق ، لكني نسيته ! الآن يدعى جري جري .

سألت ذات يوم الجنرال ماكانت علاقته بالقطط . بعد تفكير : « باتت لاتخافني .. »

قالت جنيفييف ديغول إنه سمع ، في حزنٍ ، الأطفال ، يقولون ، في الغرفة المجاورة عن عيد الميلاد المقبل : « إذا جاء العم شارل يكون أحسن ، لكننا لن نستطيع المزاح .. »

اتجه إلى جوفروا دوكورسيل :

– هل قرأت النظرية الإنكليزية الأخيرة عن آزنكور ؟

– لا أعتقد .

– يذهب التقليد إلى أن الرّماة الفرنسيين لم يستطيعوا استخدام أقواسهم ، فقد ارتخت من المطر لأنها كانت دون أغماد ؛ فيما كان يمتلك الرماة الإنكليز أغماداً .

سأل الجنرال : « بات هذا غير متفق عليه ؟ »

– النظرية الجديدة تقول التالي : كانت تجوب أوروبا جماعات

كبرى من الجرذان . وكان الإنكليز وحدهم يمتلكون « قبطانيات[1] قطط » . وتجنب قطيع عظيم من تلك الجرذان الجيش الإنكليزي ، لاخوفاً من القطط وإنما من رائحتها . واندفع إلى أوتار الأقواس الفرنسية المدهونة بالشحم .

قال الجنرال : « في آزانكور كان يقاتل الرماة بأقواس عادية أو أقواس قذوفة ؟ » .

– بالأقواس كما جاء في أحد الأفلام .. ربما كان كل هذا سخيفاً ، غير أن المؤرخ يستطيع أن يدقق فيما إذا كان الجيش الإنكليزي يمتلك أو لا يمتلك سرايا قطط . هذا يعجبني مائة وعشرون قطاً في الصف ..

قالت السيدة ديغول : « من أصعب الأمور أن تجعل اثنين منها يعيشان معاً ! .. »

قلت : « أحب قصة عن القطط إلي – ولا أدري من صاحبها . أهي لويز دوفيلموران ، أو جان كوكتو أو أنا – هي التالية :

« قرب النار ، عجوز أنكليزي ، وامرأته ، وقطّهما الأسود . ينظر القطّ الى الرجل ويقول له : « زوجتك خانتك ؟ » ينزل الإنكليزي بندقية صيده ويقتل امرأته . يذهب القطّ وذنبه كإشارة سؤال ، وهو يقول : « كذبت » .

قال الجنرال : « لابدّ أنها منك . لكن القبطانيات استمرت طويلاً ، بقطط أو دون قطط . أنت تذكر أن المحفوظات ، تلقت منذ

---

(1) قبطانية [illegible] تعبير [illegible]

سنوات ، رسالة شارل دوباتز ، أي دارتانيان ، النقيب في البحرية ، التي يشكر فيها الملك لأنه سمّاه نقيباً على كلابه الصغيرة .

« عندما فقدت القطط من أوروبا ، أرسل بعضهم قطّاً من الحبشة إلى البابا جريجوار الأول ، وأعلن ، لا أدري أي مجمع ، أن الحبر الأعظم يهمل واجباته البابوية في مداعبته .

أذكر قطّاً أسود كان ينام على مصيدة للفئران في بلدة كونكارنو « القديمة » .

أحد جدران غرفة الانتظار ، وقد كان عارياً قبل عشرين سنة ، تغطيه هراوات بولينيزية ، بعضها جدّ جميل ، وبعض مما صنع للسياح . قال الجنرال : « إنها تسلّي الأطفال . » على خزانة نورماندية في غرفة الطعام ، مجموعات منحوتة لعظم الشمال .

– أسكيمو ؟

قالت مدام ديغول : « قدموها لنا في كيبيك » .

تقوم بخدمة المائدة خادمتان بمريلتين بيضاوين . والجنرال نفسه يسكب الخمر . حتى الآن لم أر له هذه الابتسامة النازلة وهذا الجفن المتغضن ، إلا حين يرافقان النكته – كما حين قال لي وهو ينظر إلى بريجيت باردو تصل إلى حفلة استقبال في الإيليزيه وقد ارتدت بيجاما ذات شرائط على الصدر (براندبورِيّات) : « ياللبخت : جندي ! » ثم قال لها : « أي حظ يا سيدتي ! أنت في البزّة العسكرية وأنا في المدنية ! » أيضاً؛ ذات يوم وهو يصافح أيدي الجمهور دون أن يضع نظارته : « نهارك سعيد حضرة الخوري ! – أنا أحد حرّاسك سيدي الجنرال . –

إذن نهارك سعيد حضرة المرافق ! » وفي مرارة أقسى إلى غبي قال أمامه : « لقد بولغ بأموال التوقيف في رافنسبروك . – أيها السيد ، كانت أموال المقاومات جيدة في معسكرات الإبادة ، لدرجة أن أكثرهن بقين فيها » .

يسأل السفير عن أخبار أصدقائه الإنكليز .

– أكثر الرسائل تأثيراً عن موضوع رحيلي ، كانت تلك التي تلقيت من السيدة تشرتسل .

والتفت إلي :

– هل تعرف أيها كانت الأولى ؟ رسالة فرانكو . دعاني فيها أن آتي إلى إسبانيا .

وتلا اللحم المحمّص سمك موسى . خمرة بوردو الرائعة . الجنرال لا يدع أبداً كأساً فارغة ، سألني وهو يملأ كأسي :

ألم تذهب لمدينة الجزائر؟

دعيت كي أرأس مؤتمر الناطقين بالفرنسية .

– كدت أوافق ، لأنّ توجيه الدعوة إلى فرنسي لها مغزاها . قيل لي إن البلبة بلغت أوجها ، بين السود الأمريكيين والسود الأفريقيين ..

ربما كنت أحللت النظام .

– كنت أحس أني قلت ماعندي في نيامي ..

– قلت حتماً في نيامي أشياء مفيدة . هل تغّير النيجير كثيراً ؟

– أقلّ من التشاد . نيامي مازالت مدينة من الأمبراطورية الفرنسية القديمة ، والرئيس فيها يسكن قصر الحاكم الأصغر ..

– والقرى ؟

من ألف عام . إنما يسكن فيها بعض من عالماتنا في الأثنولوجيا ، كما أن مساهمة النساء ، في إسلام النيجر ، لا يستغنى عنها . يعتقدن أنهّن يستطعن لعب دور بين النيجر وفرنسا ؟ وهن على حق . القرية ، نفسها ، لم تتغيّر . إلاّ بالتالي . كل طوال القامة يدعون بعضهم بعضاً غول[1] ، كما في الكونجو . والبول هم[2] أيضاً كبار . ونساؤهم أو خطيباتهم ينادين بعضهن بعضاً بالخالة إيفون : تنتيفون . مع أن **الكانار أنشينيه** لاتدخل إلى هناك ! وهكذا تسمع في أزقّة **المعز** التي فوق النهر نداءات بعيدة : « غول ! غول – تنتيفون ! تنتيفون ! »

ضحكت السيدة ديغول .

سألت : « ما تصنع عالماتنا الأثنولوجيّات ؟ »

– أبحاثاً عن النساء النيجيريّات . مهمتهّن ليست سهلة . شعر التي كانت دليلي متّموج ؛ والنيجير ، عند سكان البلاد الذين شعرهم أجعد ، هو إلهة شعرها متّموج ، والسبب تمّوج تدفّقه . عندما استحمت اثنولوجيتنا أوّل مّرة ، فرّت القرية جميعاً . ورجعت بعد بضعة أيام ، فقالت لها أحسن صديقاتها النيجيريات : « من حسن الحظ ، أننا نعرفك جيّداً : أو كانوا قتلوك . فبما أنك لست الإلهة ، لايمكن إلّا وأن تكوني الشيطان . » منذئذ ، لا تستحم إلا بقلنسوة من كوتشوك ، كما أنها تغطي شعرها بمنديل ..

على إحدى قطع الأثاث توجد عدة أعداد من جورنال دولافرانس .

---

(١) من ديغول .

(٢) من Paul

الأولى منها خصّصت للثورة . نظرة الجنرال تتبع نظرتي . قال :

– كانت الأمور أقلّ صعوبة مما نظن : كان سكان فرنسا ثمانية وعشرين مليوناً ، والتجنيد . لقد نهضت الملكية ، في مغربها ، بقوتها العسكرية ؛ والإصلاحات التي طالب بها جيبير حققتها الثورة والأمبراطورية . لكن الثورة أعادت فرنسا إلى المعركة ، وفرنسا صنعها دائماً ضرب السيف . والسلاح يتحلّى بفضيلة تجعل نبيلاً أقل الناس نقاءً .

«من كان يظن أن تلاميذ جان جاك روسو يصبحون رومانيين؟»

لما ذهبنا نرى إخراج **روي بلاس** الجديد ، قلت لك : « أي موضوع فريد ! » وأجبتني : « عند جمهور تلك الفترة ، كان الخادم عاشق الملكة ، هو روسّو وقد غدا رئيساً للوزراء . » لم أفكر بهذا . أكان حقاً يرغب بذاك ؟ لم لا ؟ كان مجنوناً قليلاً ..

والجنرال يحب **الظرف** ، بالرغم من أنه كان يبدو **متزمتاً** ولا هبات مزاح أسود .

قلت : « لم يكن يعرف فيكتور هوجو أن ماري دونوبور ، ملكة روي بلاس ، ولدت ابناً طبيعياً ، أغرب مغامر في القرن ، هو الكونت دو سان جرمان . كان كاليوسترو وكازانوفا يبحثان عن الحيلة التي يستقبل بها في جناح الملك لويس الخامس عشر الخاص ، فيما لم يستطيعا هما أبداً الوصول إليه : كان لويس الخامس عشر ، ككل ملوك العصر ، يعرف ولادته ..

على غلاف عدد آخر من المجلة ، صورة كبرى لنابليون .

سألني الجنرال : « كيف أنت من الأمبراطور الآن ؟ »

— عقل عظيم جدّاً ، وروح جدّ صغيرة ؟

« لكن هذا لا يقال في كورسيكا .. »

كان مفروضاً فيّ أن ألقي خطاب الذكرى بميلاده في أجاكسيو ، فيما يلقي الجنرال ، خطاب عودة رفاته في الأنفاليد .

قلت : « يبدو لي انه لم يواجه أبداً التساؤل المتافيزيقي ، أو اذا كنت تفضل الديني . اقرأ ذكرياته . يحدثوننا عن تطّيره ، كما لو أنّ كبار العقول الدينية لم تكن متطّيرة ! لكّن دينه ، الحقيقي ، لم يكن ولا شك جدّ مختلِف عن دين امّه . إن عظام الغزاة ، نادراً ما يتساءلون عن معنى الحياة : الاسكندر ، جنكيز ، تيمور .. وأفترض انهم عندما جاؤوا اليه ارسلهم جميعاً الى دروس الدين ..

ويجيب الجنرال بنصف ابتسامة تبدو وكأنها تعني لقاءً آخر مع غرابة الانسان :

— اما عن الروح ، فإنه لم يتح له الوقت .. حتى ، في سانت هيلانة .. متى قال الجملة التي ذكرت له : « نعم ، إنه لحزين ، مثل العظمة .. » ؟

— عندما رجع الى التويلري ، بعد جزيرة إلبا .

— هذه الجملة ليست من روح عادية .

— هذا صحيح . كانت الروحانية غريبة دائماً على نابليون ، غير ان علاقته بالحياة في سانت هيلانة ، لم تكن نفس ما كانت عليه في اوسترليتز .

ويتابع الجنرال : « كما ان ، قدرة الخلق الاسطوري ، عند

الاشخاص التاريخيين ، وانت ترى ما اريد ان اقول ، تأخذ مكان الروح » .

– ما كنت تقول في الانفاليد ؟

– لقد ترك فرنسا اصغر مما وجدها عليه ، هذا صحيح ، غير ان الامم لا تأخذ معناها هكذا . بالنسبة لفرنسا كان يجب ان يوجد مثله مثل فرساي : كان يجب ان تبنى . والعظمة لا يساوم بشأنها .

إنه يعرف على كل حال ان القوة هي القوة ، ويحس بشكل يائس بضعفنا ، لكنه لايقوّم فرنسا بقوتها (لقد قضى بغباء جملة ستالين التي يقول فيها : « إن ما تملكه فرنسا من الفرق على الجبهة هو اقل مما تملكه حكومة لوبلين ») واقل من ذلك بأراضيها . أو لم يكن شعوره بذلك اوضح يوم عزم على الموافقة على استقلال الجزائر ؟ ذلك اليوم ، اختار روح فرنسا ضد كل ما عداها ، وضدّ نفسه أوّلاً . إنه لا يعلّق كبير اهمية على واقعة ان نابليون ترك فرنسا مبتورة : لقد اثبت الامبراطور للفرنسيين ان فرنسا موجودة .

واستأنف قائلا : « كما ان قدر نابوليون ، كما تعلم ، ليس بالقدر التاريخي الوحيد الذي نسج من اخطاء كثيرة » .

– كل رجل تاريخ يجمع اسلحته قبل ان يختار منها ما سوف يستعمله .

– لكن عليه ان يختار . إن مأساة انكلترا الحالية هي في انها مكرهة على الانتقاء بين المحافظة على بقايا الامبراطورية مع الهيمنة الاميركية او الرهان الامين مع القارة . لقد قضى تشرشل كل وقته بالتنازلات

للولايات المتحدة ، بدءاً بجزر الانتيل ، مقابل خمسين سفينة لا يصنع الاميركيون بها شيئاً ! اما نابوليون فانه لم يحسن الاختيار بين قائد الجيوش والامبراطور . قبل لايبزيغ قضى ساعات في توقيع المراسيم . مع ان جيشه لم يكن آنئذ الجيش الفرنسي . كيف تبدأ الاشياء ، وكيف تنقلب ؟

« حتى ١٨١١ ، لم تضعف عبقريته ، كان جوهر استراتيجيته هو في جمع كل الجهود في واحد ، عناده في مضاعفة الرهان ، هوسه بالمغامرة . اما في المعركة فانه يعرف اكثر من اي انسان آخر كيف يصنع كسر التوازن ، وكيف يستغله حالا ، إرادته لم تواجه اي كسوف ، لا في النصر ولا الهزيمة ، يقول فولتير إن الصفاء في الالم هو أوّل مواهب القائد . في كل قدر تاريخي ، توجد لحظة يبدأ فيها شيء. كل شيء بدأ عنده في لودي » .

افكّر : وعندك انت ؟ لكنّي اعرف الجواب . بدأ كل شيء عندما انقطع عن التفكير بفيجان ونوجيس ، والآخرين (ونفترض ان ..) عندما اجاب رونه كاسان لما سأله في لندن : « هل أعتبر بصفتي رجل قانون ، اننا فرقة اجنبية ، او اننا الجيش الفرنسي ؟ – نحن فرنسا » . فرنسا ، كانت امامه ، طاولتين من خشب ابيض .

استمر :

– لكن نابوليون يزعم دائماً انه يقسر الحظ . لقد كسر سيف فرنسا بعد ١٨١٣ ، لطول ما ضرب به . عندما يتحطم التناسب بين الهدف والوسائل ، يغدو كل تدبير العبقرية عبثاً . كل مافعله في الجزء الاول من حياته (اعني قائد الحرب) هو رائع التصميم . كل ماصنعه بعد

هزيمته في روسيا يشبه المغامرة . واعرف جيدا ان الملازم اذا اصبح امبراطوراً ، يمكن ان يظن ان الامبراطور عندما يعود يربح معارك اخرى ، ثم يرى بعدها . لكنه يشنها وكأنه بات ليس نفسه .

ما فكّر به ، ماكتبه ، يتخذ في ذاكرته كثافة معادلة أو ملخّص . إنه لا يرتجل ، بل يركّب . وكيف لا يظهر محترفاً بين هواة ، عندما يكون التاريخ موضوع الحديث ؟

– قالت جوزيفين بيكر ان العودة الى ان تكون نجمة اصعب من ان تصبح نجمة .

قال : « شريطة الا تعتقد انها نجمة . لو ان نابوليون لم يربح كل تلك المواقع ، من يدري انه كان يشن واترلو بالطريقة التي فعل ؟

– في النهاية كان بلا خيالة ، يبدو عليه انه يقاتل ضد كل قواعد شبابه .. فيما أكّد لي ، الامير شفار زنبرغ ان جده استقدم من روسيا الخيالة النمساوية ..

– ربما ان الآخرين لم يهاجموه كثيراً ! إن هزائمه لم تنل قليلاً من مجده . انظر في قوة اسمه ، وليس عند الفرنسيين وحدهم ، انه يحرك النفوس : انت تعرف قبره ! هل رأينا الجمهور ، في اي مكان ، يحس اكثر مما بين يديه برعشة العظمة ؟

– ذلك بالرغم من غضب تولوستوي الذي كان يرى فيه قاطع طريق . بعد الهزيمة ، كرهه الجنوب في هياج . في كاركاسون اقيمت محرقة كبرى ، من كل ما يحمل رسمه ، ثم ذهبوا فجاؤوا بنسر من قفص كي يحرقوه حيا على المحرقة .

– كم من الرجال يليق به ان يحرق له نسر لكره الناس له ؟

« ترى ماكان شعوره ، ودهشته ، حينما خسر أول معركة ؟ .. لقد اضطربت لصيحة جان دارك حين ادركها اللهب ، كانت تعتقد ، حسب ما قلت ، ان القديسين يحفظونها ، وانها لن تحترق . لابد انه عانى ما هو شبيه بذاك .

– لقد هزتني دائما احدى جمله لانها رائعة ولانها لاتفهم : « اصنع خططي من احلام جنودي النائمين » .

« لقد اعاد النظام – او بالأحرى اقامه ، لأن الامر لم يكن نفسه . كان يحمل في ذاته حاجة تحويل الفوضى الى نظام ، ككل رجال التاريخ الذين ليسوا رجال مسرح .. والامر واضح في السياسة ، لان الفوضى التي ينظمها هي واضحة . اما في المجالات التي ليست من السياسة ؟ انا الآن في سبيلي الى جمع مقدمات كتبتها سابقا عن اناس من نهاية القرن الثامن عشر ، اي عن احدى اعمق الازمات التي مرّ بها الفرد . ما كان يكون ادب هو استمرار لاكلو ، وسياسة هي استمرار سان جوست ، ورسم هو استمرار جويا ؟ ان نابوليون هو السبب ، الذي جعل مدام ريكامييه بكرسيها الطويل تخلف **الماخاديسنودا** .. لكنه القى بفرنسا في ناحية الرجال ، واوروبا لم يغزها ، منذ **١٧٥٠** الفرنسيون ، وانما الفرنسيات .

– لقد ملك الطموح على فرنسا . كانت الثورة قصة خارقة ، واحال هو اعضاء الكونفانسيون الى محافظين . كان استاذ الطموح ، او كما قال باريس : استاذ العزم ، لكنه امتاز بالطموح ، اكثر من العزم .

– سان راستينياك ؟ لقد كتبت انت : « دافع الطموح الوعر ،

الذي يشد ازر رجل العمل » او شيئا من هذا القبيل ..

– امره لم يكن ابدا هوىً بالرتب والمراسم ، بل امل في التأثير بالأحداث الكبرى . إن الطموح الفردي هو هوى طفولي . ان تفضل ما تظهر عليه عما انت هو ، عندما تكون نابوليون ! وان تكون قادراً على السيطرة على عزلة سانت هيلانة ! على كل حال ، اما كان مؤمنا بفرنسا ؟ كان يحب الجيش الفرنسي ، لانه كان في تلك الحقبة وتحت قيادته افضل جيش . لكنني اعتقد انه تصور قدره ، حتى في سانت هيلانه ، على انه قدر فرد خارق . ولو ان الفرد ، شيء هيّن ، تجاه امّة .

– إنه ولاشك ، سيادة الجنرال ، قديس راستينياك[1] الحامي له ، وايضا قديس نيتشه . ومهما كان الذي حدث في سانت هيلانة فقد ارتوى طموحه حتى الاوج . يقول ستندال عنه ، انه لو وحّد ايطاليا سنة ١٨١٣ ، لاستطاع الاستمرار بالحرب فيها بعد واترلو .

– كان يعتقد بوجود الأيطاليين دون ايطاليا . فيما كانت فرنسا موجودة .

– اريد ان افهم ، لماذا يسجل المتحمسون له انتصاراته ، ولا يسجلون عليه هزائمه . يخيل لي ، لانه يدهشهمْ . والفرنسيون يعترفون له ، كما هو شأنهم مع الكونفانسيون ، وجان دارك ، بما يظهرونه « مما يستطاع فعله معنا » عندما تسوء الاشياء . لقد وثق بهم . ولهذا احتملوا واترلو : لقد رجع اليهم .

---

(١) إحدى شخصيات بالزاك الروائية

- اعرف انه لم يكن ابدا على قدر نفسه . غير ان الشحاطات كانت دائما ضده . وهذا ليس قليلاً .

ثم حركة غامضة ، تبدو وكأنها تعني : هل نلوم البشر اذا كانوا مرضى ؟

- طبعاً ، انت تعرف سيادة الجنرال قصر مالميزون . وانت سيدتي ؟

- آه نعم !

لااعتقد اني سمعت : « اوه نعم ! » من امرأة ، بعد رئيسة دير فيلّفرانش ، التي سألتها ان كان لديها انجيل القديس حنّا .

قال الجنرال : « الخميلة التي كان يلعب تحتها القنصل الاول لعبة الخشبات مازالت قائمة » .

- في مواجهة باب البستان ، كانت توجد شجرة . رأى من بين غصنيها العظيمين نجمته ، حين رجع من اوستيرليتز . ولم يذهب الى مالميزون بعد واترلو ، من اجل ذكرى جوزيفين ! استقبلت فيه القيصر . وانما ، على قول الجنرال برنار ، كي يلتقي بالنجمة التي اختفت منذ سمولسنك ولقد روى نابوليون هذه الحكاية على المركب الذي اقله إلى سانت هيلانة . فسأله القبطان : « لكن ، هل كانت نفس السماء ؟ » لقد حدثت اوستريليتز في ٢ كانون الاول وواترلو في ١٨حزيران . لم يفكر بذاك الامبراطور . بوسعكم ان تتخيلوه ، لاهيا عن السماء التي نسيته وهو كخيال تحت قناديل رواق مالميزون ، يبحث عن قدره الذي اختفى :

وبعد ايام البيليووفون [1] . ولقد ذهب الامير نابوليون ، بعد ان رويت له الحكاية ، لكي يرى الشبان ، غير ان الشجرة شاخت كثيرا ، فقطعوها ..

– إنك لاتجد ابدا نجمتك ، عندما تعمد الى البحث عنها .

–« **حدثينا عنه ياجدّتي – حدّثينا عنه** .. » لقد منح الشعب إمكانية الوصول الى الاريستوقراطية ، ففي جعبته عصا الماريشالية الشهيرة . وما كان يسميه بالمساواة ، هو هذه الفرصة . اما ما كان يدعوه بمجده ويضعه بشدة فوق ذاته ، فمن طبيعة اخرى .

– اراد ان يجعل من الفرنسيين اريستوقراطية ، وهم لايحبون سوى ذاك ! ومن ذا الذي احبه سوى الشعب ؟

– ما هو الشعب ، سيادة الجنرال ؟

– إنه فرنسا طبعا .

الجملة نفسها ابان الانتخابات الرئاسية الثانية في مكتب الايليزيه ، واللوحات التي كان يسميها « نساء عاريات في زهور القمعيات » وخارطة العالم الضخمة والنوافذ التي تحيط بجنينة الورد وقد غدت وحيدة .

استأنف قائلا : « صحيح ، وانا لا اؤمن بقانون العدد ، غير ان الاهواء الجماعية موجودة ايضا في الاقليات . وافضل اهواء فرنسا على اهواء المجلس الاقتصادي ، أو المجمع العلمي الفرنسي . لقد كانت للجماهير اهواء عظيمة ، حتى وجيّدة ! ان السلطات لايستغنى عنها ، لكن الاهواء

---

(١) في الميثولوجيا اليونانية ، أمير يقتل الغول .

لا تفيدها في شيء : فهي تخلط بينها وبين العقل .

« لقد غدا نابوليون رجلا عبقريا عند كل اعدائه الاجانب تقريبا . أما عندنا فأفهم : انه لايؤكد لفرنسا انها افضل مما تظن ، ونحن ما فعلنا سوى ذلك ؟ اما عند الالمان ؟ خليفة شارلمان ؟

– لاشيء اعجب ، سيادة الجنرال ، من تحول سيرة انسان الى حياة اسطورية . لماذا كان قيصر احد اعظم وجوه الغرب ؟ انتصارات هامة غير اساسية ، وحكومة رومانية عظيمة بين اخريات .. لكننا وجد بلوتارك . وشكسبير .

– لم يكن يسميهم بومبي ، حتى ولا اوغيست . والانتصارات اقل اهمية مما نظن . لماذا يحترم تورين اكثر من كونده ؟ إن اياً من معاركه ليست لها اهمية روكروا . وموريس دوساكس ، الذي لم يخسر اية معركة ، لا يساوي ابدا نابوليون الذي انتهى بالهزيمة ، ان الانتصارات التي ليست سوى انتصارات لا مرمى بعيدا لها . يجب ان يدخل اللعبة شيء آخر . ربما الامة المقبلة : جان دارك ، ومستقبل العالم ، ومعنى الذين يصنعون التاريخ المضطرب والرمزي ، وانت ترى ماازيد ان اقول .. اما عن نابوليون ، فقد كان غالبا ، حين قاد الجيش الفرنسي ، ومغلوباً حينما قاد الجيش العظيم ، الذي ليس فرنسياً . ماعدا واترلو .

« وفرنسا ، كما ترى ، تعترف له ، دون ان تدري ، بما صنع بالفرنسيين . كانوا من روزباخ . وكان هناك جنود العام الثاني ، نعم ، نعم ! كانوا يبتعدون ، عندما وصل الى ايطاليا ! .. لقد فعل بالجيش الفرنسي ما فعلته روما بالفرق ، وما فعله الاسكندر بالجمعيات السرية .

في نهايته كان السبعة والثلاثون الف رجل من الحرس ، بكل بساطة فرنسيين ، بما فيهم الماري لويز[1] الذين لم يكونوا يعرفون كيف يحشون بنادقهم . وكان يمزج فيكتور هوغو مزجا عبقريا بين هؤلاء المجندين المساكين والحرس القديم ..

« اراد ان يخترع فروسية له . فرسان جوقة الشرف . وخلق قطعات النخبة الفرنسية التي لم يقاومها احد : « ياموروا ، ان هضبة براتزن تغطيها البطاريات اذهب وخذها » صدقني ان فرنسا لم تنس ذاك ، مهما كان تفكيرها به . سنة ١٩٤٠ ، كان يقول للفرنسيين ، معي ، انهم ليسوا كما يبدون عليه ..

وحركة غامضة ، كأنه يلوم نفسه ، لانه تكلم اثناء الغداء ، بأشياء جدّية ، ويستأنف بلهجة ساخرة :

– ومشروعك بنقل رفاة ابن النسر ؟

رأيت من غير المعقول ان يبدو نعشه ندّا لقوادنا العظام ، بنعمة هتلر . وبما انه موجود في الانفاليد ، رغبت بأن يوضع عند قدمي قبر الامبراطور .

– وتم نقله على ما اعتقد ..

– لم ينتبه له احد . الحقيقة ان احداً لاينتبه لشيء الآن .

يعود الى الكلام ، في فضول غير مهتم : « لماذا بحق الشيطان اتخذ هذا العدد من شركات التأمين النسر شعاراً له ؟ » .

---

(١) اسم زوجة نابوليون الثانية وقد أطلق على صغار السن الذين جنّدهم الأمبراطور في حرسه .

– ألأن الرئيسي منها ، على ما افترض ، اميركي ؟

– كل مساء ، يكلمني الراديو عن شارع الرئيس كينيدي . وحسب ما اعلم لا وجود لشارع باسم كليمنصور لا في واشنطن ولا لندن .

« في نيويورك ، استقبلك جونسون ، على ما أظن ؟

– بصفته نائباً للرئيس ، سيادة الجنرال . بكل احترام ..

– نعم نعم .. بالرغم من انه لم يكلف نفسه عناء التظاهر بالتفكير .

– في والدورف ، اصطف الاميركيون سنة ١٩٤٤ كي يصفقوا لك ..

– رموني ، لا أدري في اي شارع ، بأوراق صغيرة جعلوها نثاراً . شعب عاطفي دون دناءة . لابأس به .

– هل تذكر حوارنا ، حينما رجعت من جنازة كينيدي؟ حدثتني عن السيدة كيندي. قلت لك: «لعبت لعبة على قدر عظيم من الذكاء : لقد اعطت زوجها ، دون ان تتدخل في السياسة مقام حامي الفكر ، الذي ماكان يحظى به لولاها : عشاء الخمسين حاملا لجائزة نوبل ..

– وعشاؤك انت !

– .. ايضا هي . غير انك أضفت : « انها امرأة شجاعة ، وجد مهذّبة . اما عن قدرها فإنك تخطىء : انها نجمة ، وسوف تنتهي الى يخت تاجر بترول » .

– انا قلت لك هذا ؟ غريب ! ... بالحقيقة ، كنت اتصور ان تتزوج سارتر . أو انت !

وعاودته لهجة التهكّم ، المختلفة عن الأخرى ، الفريدة عنده ! الغريبة على ما يقول . تابعت .

– هل تذكر اللافتات في كوبا : « كينيدي لا ، جاكي نعم » ؟

قالت السيدة ديغول : « ترى لو ذهبنا نحن ، ياشارل ، أكانت ترفع يافطات : ديغول لا ، إيفون نعم ؟ »

نادراً ما يجيب عن اسئلة المزاح . وحين يتوقف المزاح ، اعرف نفوذ بصيرته الغريب . عندما دخلت احدى صديقاتنا في رهبنة الكرمل ، كتبت مقال وداع لها . قال لي : « لاتنشره يمكن ان تخرج : فهي لم تنذر نذرها » .

وخرجت فعلاً .

سألته :

–اي انطباع خلقته فيك انديرا غاندي ؟

– كتفان ضعيفتان ، يستند اليهما قدر الهند الكبير – وهما لاتزعلان ، وماذا يهم ؟ هل تظن اننا لو امتلكنا القنبلة الذرية قبل الاميركيين ، اكنا نتبع هذه السياسة والتي ليست بسياسة ؟ وربما كان بوسع بونابرت ان يتفق مع **كبير الاتراك** لو ان حكومة الادارة نبذته . ولو ان بورقيبة ولد ابعد قليلا على الشمال ، لصار محافظا في مرسيليا . والنساء يفكرن ، بوجه عام بالحب ، والرجال بالرتب ، أو ما هو من هذا القبيل . وفيما عدا ذلك ، يفكر الناس بالسعادة – التي لا وجود لها .

اذكر جملته : « إن وهم السعادة ، يا داستيه ، هو وقف على البلهاء ! هل كنت سعيدا انت ؟ منذ زمن بعيد ، على ما افترض ! » لكني ايضاً اذكر جملة جيد : « غريب هو ، ياعزيزي ، وجعي من الا اكون سعيدا .. »

اجبت :

– النساء يفكرن بالحب ولاشك . لاحظت « امرأة حسّاسة » لستاندال انّك اذا شَدَهتَ قمت بفعل مثل سواه اما اذا شُدهت ، فتلك مسألة هامة ..

واستمرت السيدة ديغول في مزاحها .

ـــ مع ذلك ، ياشارل ، أعطيتهن حق التصويت .

ـــ فرنسا لاتتجزأ .

ـــ وعفوت عن كل المحكومات بالموت .

ـــ النساء قادرات على افضل فعل واسوأ فعل فوجب اذن الا نطلق عليهن النار .

هل تعني اللهجة : انهن لامسؤولات ؟ بشكل خفي . غير ان اللهجة تبدّلت . تابع :

ـــ لماذا الجمال النسائي هو ، الى حد ما ، قناع ؟ التماثيل ، واللوحات ، والسينما ...

ـــ الماكياج ... اللائي تشرّفت باستقبالهن معك ، مارلين ، لودميلا تشيرنا ، بريجيت باردو ، لم يكن يصلن الى الايليزيه بالمجعد [1] .

(١) ما يجعّد عليه الشعر .

الفنانون يخترعون الحلم ، والنساء يجسّدنه . غير ان المسيحية اخترعت وحدها الخالد لدى النساء .

ــ لماذا ؟

ــ حاولت ان افهم كيف استطاعت فينوس ميلو ان تصبح عذراء غوطية . لقد دفعني للحلم ذات حدث اول عندما فكرت الكنيسة بأن قدرها مرتبط بكلوفيس ، وهو وثني ، بحثت له عن امرأة كاثوليكية . وبعيدا ، لان كلوتيد هي اميرة سويسرية صغيرة . ولم تبحث الكنيسة عن اجمل النساء وانما عن اكثرهن سحرا . كانت كبرى المحظيات جميلات ، رائعات ، بل باهرات ، لكنهن لم يكن ساحرات . تلك الانوثة التي يمكن ان تعرّف بالرقة ... بعد ذلك بمدة طويلة ، هيمن الطقس المريمي على المسيحية : وسميت تقريبا كل الكاتدرائيات بسيدتنا . انت تعرف النظرية القائلة : عندما رحل الاقطاعيون الى الحروب الصليبية ، اكتشف الفرسان ــ وقد رسموا في الثالثة عشرة ــ وهم الذين لم يعرفوا ، حتى ئذ غير امهاتهم واخواتهم ، والفلاحات اللائي يضاجعون ، اكتشفوا في السيدة الاقطاعية ، التي ترأس الان المائدة ، امرأة حقيقية بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، تأخذ ألبابهم ... وبوسعنا ان نقول الكثير هنا ! ويبقى ان خالد المرأة لايوجد الا في العالم المسيحي . لكن تعبيره لاينفصل عن مجال الدين . وآنييس سوريل تكشف عن نهدها الشهير في بورتريه للعذراء . ان لحظة الرسم الرائعة ، هي التي يكتشف فيها الرسام خالد المرأة ، ضد العذراء .

ــ استمر ...

ــ الجوكندا هي اللوحة الوحيدة التي يتمثلها المجانين ، حتى الذكور منهم ، الوحيدة التي يطلقون عليها النار . ولولا انها يحميها زجاج ضد الرصاص يحيلها مائلة للاخضرار ، لكانت ثقبت منذ عهد بعيد . سارقها حملها الى جابرييل دانونتسيو مرتاعا ... وحين ،وجد البوليس الاطار ، بات يمتلك البصمات فقارنها مع كل الاخريات ، غير ان السارق ، بيروجيو ، لم يشتغل في اللوفر الا منذ ستة شهور . ولم يفحص رجال البوليس بصماته وانما زاروا غرفته ، عملا بالمبدأ . ووقعوا المحضر على غطاء طاولة كانت اللوحة تحته ،و**الجوكوندا** ، دون اطار هي لوحة رقيقة . عندما ارسلناها الى الولايات المتحدة ، سافرت على الباخرة **فرنسا**.ووزعت الزهور التي ارسلت للمسافرات عندما نزل المركب الى البحر . وبقيت باقة بنفسج من بارما ومعها غلاف رسالة :«الى الموناليزا» ذهب القبطان الى انه صحافي بارع . لكن البطاقة كانت بيضاء .

«وفوق ذلك . ربما لم تكن **الجوكوندا** هي موناليزا ، وانما كونستانس دافالوس ، التي ترتدي خمار ترملها ــ كما انها اكبر بعشرين عاما . كم عمرها ؟ علقوها في حمام فرانسوا الاول ، ولويس الرابع عشر ونابليون : اي . في وقت لم يكن فيه ليوناردو في مكان الصدارة . ولقد كتب وهو الذي كان يخالجه تجاه رسمه احساس مضطرب : حدث لي ان رسمت ذات يوم وجها حقا ملائكيا ... لقد انبثق الوجه ، في زمانه ، يقينا مثل تجلّ ، لان بعث صور العصور القديمة كان مصدره التماثيل ، وكانت هذه من دون نظرة ، اي من دون روح . أظنني قلت في واشنطن . شيئا من هذا القبيل :«ان الغانية ذات النظرة الالهية تنتصر على الالهة التي دون

نظره ...» «ان وجها دون نظرة ، كالوجه الذي نحتته العصور القديمة ، هو التجريد ، او النوم ، او الموت ... هل تحب ، سيادة الجنرال ، النحت اليوناني ؟

رأيت في المكتبة ظهر بعض الالبومات .

ـــ لقد حملتني على تدشين بعض المعارض التي دفعتني للتفكير . المكسيكيون ... ان النحت الوحيد الذي يكلمني هو نحت العصر الوسيط .لقد اثرت اهتمامي حين كتبت ان زمن الحروب الصليبية كان ينحت قديسين عسكريين ، ولم ينحت ابدا فرسانا . كيف اخترعوا القديس جورج الذي لم يوجد ابداً؟ كيف كانت الحال: اكرر، ان النحت الغوطي الروماني [1] يكلمني . وماعداه ينتسب الى الاثار .

« ماكان يحدث للفن اليوناني ، لو ان اليونان غُلبت في سالامين ؟ اعرف جيدا جوابي ، لكني لااعرف جيدا على ماذا ابنيه :

ـــ كان كل شيء ينتهي مع الاسكندر ...

يبدو انه يرمي عنه وهما ، ويقول :

ـــ نعم . وعند الفجر اكل الذئب عنزة مسيو سيجان ، التي كافحت طيلة الليل .

«هل كان استقبال **الجوكوندا** في الولايات المتحدة كما قالت عنه الصحف ؟

ـــ في اليوم التالي للخطابات ، رأيت حشد واشنطن ، العبدات

---

(١) من Romane وليس Romain

بالفيزون ، يمسكن ببناتهن الصغيرات من شعرهن امام **الايقونة العظيمة** ... في نيويورك حيث كانوا يقفون في الرتل منذ السادسة صباحا ، وصل فتى في العشرين وقد انتفخت سترته كما لو برشيشة ، وهمَّ به بوليس سري فجسَّه ، فانبثق كلب صغير ، واعترف الفتى يائسا ، قال :«اردت ان يكون فوكس هو الكلب الوحيد في العالم الذي رأى الموناليزا» !

وايدته السيدة ديغول .

قال الجنرال :«قد نرسل لهم لوحات اخرى ، لكن المعنى لن يكون نفسه ... لكن ألم تكن رحلتك الاولى غير رحلة **الجوكوندا** ؟.

اذكر برقياتك ، تلك الفترة ــ او بالاحرى برقيات السفير . ملخص جدي ، لكنني كنت اعرف ان الرئيس يريد ان يتفق معي ، دون ان يتفق على الجزائر . واليوم مارأيك ؟

ــ لقد قامت حوارات عديدة مختلفة . اولها ، لن نتكلم عنه . كان سفيرنا يرافقني ، كان الرئيس يريد الا يبدو عليه انه يغير رأيه ، في اي امر ، وحول اي أمر . كان متشبثا اكثر منه مترويا ، لانك بعينيه موجود بقوة ، اما فرنسا فغير موجودة ابدا . اذن ،لا اتفاق على الكونجو ، لا اتفاق على فيتنام وتأتي ، طبعا ، الجزائر . كان يبدي تهذيبا عظيما ، وايضا نوعا من ... الاستبسال . قلت له :«عاجلا ام آجلا سوف نصل الى استقلال الجزائر . معنا ام ضدنا . وعندئذ تحلّون انتم مكاننا في افريقيا او اسيا ، واتمنى لكم حظا سعيدا» . ظن في البدء اني أهذي ، ثم قام بحركة مترددة ، كمن يبعد عنه السؤال . كما ان المقابلة انتهت ، لاني لم

يكن لدي ماأسأل عنه . وقام عن كرسيه الرسمي الضخم ، في تلك القاعة الفسيحة التي كنّا فيها تقريبا وحدنا ، كي يرافقني قائلا :« سوف يمحو اليوم لطف السيدة كينيدي كل هذا (كان مقررا ان يستقبلني في البيت الابيض) . ولن نتكلم عن لافاييت ! » اجبته مبتهجا :«من هذا الفتى» ؟ فانفجر ضاحكا ، وفتح الباب المزدوج ، واخذ المصورون ، وقد كانوا ينتظرون مقابلة سيئة ، صورة نحن فيها مرحين . باختصار لوريل وهاردي .

ـــ وفي المساء ؟

ـــ لطف ، كنت في غرفة على مائدة السيدة كينيدي ، وهو في غرفة مجاورة ، نتبادل الكلام بصوت عال ، وضعت السيدة كينيدي ما استطاعت (وهو كثير) كي يبدو الحديث الذي قال عنه هو فيما بعد :« كان صعبا جدا » ، وقد لفّته بعض الحرارة ... قبل عطلة الاسبوع ، وتبادلنا الفرقاطات (كان يعبد نماذج المراكب المصغرة) قال عني :«حسنا : هذا من اجل جاكي» .

ـــ الرحلة التالية كانت رحلة **الجوكوندا** ؟

ـــ تلك كانت دون اية مشكلة . الحرارة الامريكية عميقة وصادقة . كان الرئيس يعتقد اننا نسلك ، نحن الفرنسيين ، سلوك الصداقة . وحدثت بعض الامور التي تعرفها احسن مني . كان يظن انك انت الذي ارسلت **الجوكندا** ، واني كان لي دوري ايضا . كان رجلا حساسا للاسلوب . دعاني الى بيته الريفي . وبعد غداء لطيف من السلطعون الرخو ، ولا ادري ما معه

سألت السيدة ديغول :«ماهو السلطعون الرخو ؟»
ـــ كل ماأعرف عنه ياسيدتي ، انهم يقطعونه كما لو كان دون قوقعة .
ـــ هل هو طيب جدا ؟
ـــ لا أكثر ولا اقل من سلطعون عادي ، تضاف اليه الطرافة ...
قال الجنرال :«واستطعت آنئذ ان تتكلم بجد ؟ طبعا ليس اكثر مما في كولومبي ...
ـــ كان ، سيادة الجنرال ، عند روبرت كينيدي ، اخي الرئيس ، كلب جميل لونه على سمرة . ينتظر المدعوين على باب الممشى ، وكلب آخر من نفس العرق ، لكن اسود كله . على مدخل البيت . وحين شربت النخب ، قلت : الشكر لكم لانكم اردتم ان يستقبلنا كلب فهم انه يجب ان يرتدي السموكن ... بهجة عامة . فالولايات المتحدة ليست بروتوكولية ، ولقد تحدثت غالبا مع الامريكيين عبر ذاك الود . بجد اكثر مما تدعوه اوروبا بالجد .

«كان الرئيس راجعا بالطائرة من اجتماع كان ينتظر فيه بين الفين وثلاثة آلاف شخص . واذا بالحضور ثلاثمائة الف . قال لِيَ :«تفيد معلوماتي ، ان الامر لايختلف عن هذا مع الجنرال ديغول عندكم ، لماذا ؟ لأن الاسطوانات جعلت الناس يندفعون الى الموسيقيين ، فيما جاءنا التأكيد بأنهم سوف يفرّغون القاعات ، اما انتم فوسائل اعلامكم هي غير الاسطوانات ...»

«عندما بدأنا نتكلم عن فرنسا . قلت له ان الناس اجتاحونا مرات

عديدة ، وهذا مالم يحدث في الولايات المتحدة . وان اية حكومة عندنا ، لا تمكن للدفاع الوطني ، لاتستطيع ان يكون لها غير شرعية ظاهرة وافترض انك قلت له ذلك قبلي بزمن ...

ــ لم يكن كذلك تماما . وبماذا اجابك ؟

قال لي ، بصورة ألطف ، مما ألخّصه : ان الدفاع عن اوروبا ، هو نحن ، واجبت على قوله بدوري بأن الدفاع الوطني هو ارادة الدفاع ، وانه ادرك ذاك مع ماو ، كما سوف يدركه في فييتنام . فكّر ثم قال : « إن فرنسا بلد غريب : مصائبه بعد الانتصارات جعلت منه بلد اوروبا الاول ، اعادة بناء بحريته ، المساعدة التي قدّمها لنا ، الثورة ، نابوليون .. ١٩٤٠ ،واليوم الجنرال ديغول ...»قلت له انها بلد لاعقلي بعمق ، لايجد روحه (وتعرف فكرتي المفضلة) الا اذا وجدها من اجل الآخرين : الحروب الصليبية والثورة ، اكثر من نابوليون . قلت ان انكلترا لاتجد نفسها على مثل العظمة التي هي عليها الا عندما تكون وحيدة ، ولقد كانت معركة انكلترا ، سنة ١٩٤٠ ، دون مثيل منذ أيام دريك ــ أما فرنسا فلا تعظم إلا حينما تكون عظيمة من اجل العالم .

قال الجنرال : « هنالك عهد عمره عشرون قرناً بين عظمة فرنسا وحرية الآخرين ».

ــ كنت اعرف جيدا مايفكّر به الرئيس : الولايات المتحدة لاتستطيع ان تبني سياستها الأوروبية على فرنسا ، كما ليس بوسعها ان تهمل فرنسا ، لأن الفرنسيين قادرون دائماً على اختراع مالا ندري : هاهم أولاء اخترعوا الجنرال ديغول ... وحول كينيدي الحديث الى الولايات

المتحدة فقلت له ما قلت لك انت ، من قبل ــ والذي اتيحت له فرصة قوله في بيكين ، الى وزير الخارجية : « ان الولايات المتحدة هي الأمة الوحيدة التي صارت اقوى امة في العالم دون ان تبحث عن ذلك عسكريا . كان الاسكندر يريد ان يكون سيد العالم (عالمه طبعا !) وقيصر ايضاً . وارادت الولايات المتحدة بالمناسبة ، سيطرة اقتصادية : وهذا مختلف جذرياً ، اما الآن وقد ملكوا تلك القوة الهائلة ، فيجب ان نعرف ما هم صانعون بها » .

«شعرت اني التقيت بتفكيره نفسه . كان يرغب غريزياً بحل مشاكل اوروبا وآسيا بقرار من الولايات المتحدة ، ولهذا اثارني في المرة الاولى . اني مؤمن بقوة الولايات المتحدة ، ولو اني أؤمن ان القوة شيء والتاريخ شيء آخر . قرطاجة ، كانت قوية .

ــ لاتغلط : كان يريد ، بأي ثمن تثبيت وضع الولايات المتحدة المهيمن في الدفاع عن الغرب . ولست واثقاً ، بالرغم من فطنته ، من انه كان لايقبل المقارنة ، الغالية على البسطاء ، بين الولايات المتحدة الاوروبية والولايات المتحدة الامريكية . مع ان هذه الاخيرة خلقتها من العدم ، من سيبيريا خصبة ، امواج متتالية من مهاجرين انتزعوا من جذورهم . ولسوف ترى . اذا غدت ، فأدركت الولايات المتحدة انها سيدة العالم ، الى اي حد تمتد امبرياليتها .

ــ وتذكرت عندئذ جملة الرئيس ايزنهاور القلقة :«لن اتقدم من الله بيدين ملطختين بالدم »

ــ الدم يجف سريعا .

ـــ قلت لكينيدي ، دون إلحاح : « انتم الآن مضطرون الى سياسة عالمية ، كما اضطرت روما على الاقل لسياسة بحر ـــ متوسطية . وماكانت سياسة الولايات المتحدة ، منذ مشروع مارشال ؟» واحسست انه ان يريد فعلا ان يضطلع بالتاريخ . فيحمل مسؤولية الولايات المتحدة ، التي يشعر بها بقوة . والذي لاشك فيه ، انه كان يريد ان يفعل ...

« واعتقد انك لما اعلنت له انه مسؤول عن ذلك . اقمت العلاقة العميقة التي لم يهدّمها شيء .

« كان هذا السياسي الماهر منفصلا عن السياسيين بسورات غضبه القاسية ، حينما يتعلق الامر بالدولة . انت تذكر التلفزيون : « قال لي ابي دائما ان الصناعيين ، يتصرفون تجاه الدولة كأبناء قحبة ! »ربما كان الخطر هنا ، لكنه عزم ، بكل وضوح ، على الا يحسب له حسابا ...

اجاب الجنرال : « انت تعرف جيدا ، ان الشجاعة قائمة على الا تحسب حساب الخطر . ومن ثم يجب ان تموت قتيلا ، او مصعوقا » .

ويهز بكتفيه .

ـــ عندما قتل قيصر ، كان يمسك بيده ، قائمة المؤتمرين به . لم يقرأها . هذا الرئيس المسكين ، حدّثني عن لينكولن بطريقة اذهلتني . كان يأمل بأن يلقاه في الحياة ، فلقيه في الموت . وربما كانت غفلة لطيفة من مفوض بوليس مجهول في داليس ، كافية لتحويل تاريخ العالم

ـــ يبدو لي ان الرئيس مات يوم ميلادك ؟ ان القدر يلعب وحيدا لعبته الخفية : ولد شكسبير سنة موت ميكيل آنجلو والشمس تغيب في منتصف قوس النصر يوم ذكرى موت نابوليون ، الذي لم يره ابداً ...

وآخر عمل رسمي قام به لويس السادس عشر هو تعيين ملازم في المدفعية كان يدعى بوونابرتي ...

« وبعد التأملات التاريخية ، قال لي الرئيس بطريقة حادة : « الصين سوف تمتلك القنبلة الذرية . الا يجب ان نتدخل منذ الآن ؟ » لم يكن يعلق كبير اهمية على رأيي . لكنه كان يرى بأني لا أتكلم مثل مستشاريه الامريكيين ، واني آتيه بمجال آخر للتفكير . وكان ينتظر ولا شك في جوابي صدى لما تفكر به انت .

ــ قلت له ، اذا كنت اذكر جيدا ، ان الصين لن تمتلك القنبلة الذرية قبل سنة ؟

ــ وكان هذا صحيحا . غير ان الذي لم افهمه ، الذي لم افهمه فيما بعد ، حين تحدثت مع الصينيين ، وهو لماذا التقدير بأن التدخل الامريكي هو الحرب (وماكان الامريكيون لينزلوا جنودهم على شواطىء الصين) بدلا من التفكير بأن سحق بعض المراكز الصناعية يرجع الصين خمسين سنة الى الوراء ؟ افترض انه كان يطرح عليَّ السؤال الذي طرحه عليه البنتاجون . اجبته ، بالواقع ، ان لديه من الوقت اكثر مما يظن ، واضفت (في كثير من المداراة) انه لن يتدخل .

لم يجب الجنرال بشيء . ترى هل تساءل مرة اخرى ، ما كان يفعل هو ، لو أنه تحت تصرفه القوة الامريكية والقنبلة الذرية؟ هل فكر في روسيا؟ والثلج يسقط كما على المدينة المحرمة . استأنفت؟ .

ــ كان كينيدي ، ياسيادة الجنرال ، يريد حتما عملا تاريخيا له وللولايات المتحدة . وماكان امرأً دون أهمية ، ان يتصور تدخل اقوى بلدان

العالم دون ان يتصوره كامبريالية ...

ــ من يدري مايفعل به الزمن ؟ كان رئيساً حقيقياً : معماراً ، لامدير عقار . ان يبني . وجاء الموت . ترى أتقام التماثيل للنيّات ؟

كل شيء يتعلق بالخلف . سوف يخرج نيكسون من قوقعته بطريقة أو اخرى . أو هل سوف تصمم هذه البلاد سياستها التاريخية ام لا ؟ او اننا نتعرف على الوصايا الاخيرة ، ذات المدى الطويل ، ام سوف يبتدع الانسان شيئاً آخر ؟ إن بلاد المستقبل لاتفكر ابداً بالمقبل !.. لماذا ؟ باتت روسيا دون سياسة ثورية . وامام الصين ثلاثون او خمسون سنة لبناء الصين .

كم يذكرني هذا الصباح بالاستشهاد القائل :«الأم الحزينة لامبراطورية ميتة» . لكنه مهما كانت تصوراته يحتفظ بنبرة تفاؤل الطاقة اللامبالي .

يرسم الحركة التي يبدو عليه فيها انه يريد طرد كل شيء .

ــ هل تمت لك فرصة حضور اجتماعات هيبّييهم الكبرى ؟

ــ اعتقد انها كانت تلتئم بخاصة في كاليفورنيا ...

ــ تصور انني اهتم بها ! ماذا يريدون حقيقة ؟

ــ طريقة في الحياة ...ان ايديولوجيتهم ، وايديولوجية الجماعات التي تقدّمتهم ، او التي ستتلوهم ، لاتبدو لي اساسية : الزازو يدعون انتسابهم للوجودية والهيبيون لغاندي ، والرافضون لتشي جيفارا ...

هنالك ايضا العدمية ، وما اعلنته تلميذة نانيتر «عندما تعرفون ما تريدون ، فقد بتّم بورجوازيين» ، هو معبر حقا ، ان شخصيات المجانين

لتتكلم مثلها .

ــ بماذا تواجه . هي تعرف ماتريد ؟

ــ بالغريزة . لقد ولدت احداث ايار من اللقاء بين الثورة الشيوعية ــ النقابية ــ العاقلة ، وثورة الشباب اللا عقلانية . لقد ارتبطت بالرومانسية التاريخية ، كما في اي مكان .

ــ الا في روسيا .

ــ منذ بحارة كرونشتادت لا وجود للرومانسية الفوضوية في الاتحاد السوفيتي ...

قال : « كان العدميون الروس يقتلون » .

ــ والقيصر كان يقتلهم ايضا . لقد تغير الجدُّ كثيرا ... كما ان الروس كانوا طاهرين ، لايتعاطون المخدرات . يوجد في المغامرة الحاضرة ، مجال طبيعي كبير . انها تعويض . الثورة كانت حقا ، عند العدميين ، قيمة عليا ، بها كانوا يتصلون . كما قلت ، بالعمل ، اما الثورة التي يحلم بها عدميونا فتنتسب الى ماسميته بالوهم الغنائي . إن ما يواجهون به المجتمع الاستهلاكي ، ومازال غير أكيد عندنا . ليس مجتمعاً اخر ، وإنما سخطهم . غير ان السخط ليس قيمة عليا . قال لي شاب ، ذو خمسة وعشرين عاما ، كان يكمل بحثاً بين الطلاب : هنالك ماهو اهم من الهيبيين والرافضين ، الا وهو كمية الشباب التي تقول فقط :«مايهم؟» لقد وجد الطموح دائما، لكن عرضاً . كان لابد من نابوليون ، والبورجوازية ، والروايات ، والولايات المتحدة ، كي يواكب الحب ، ويغدو هوى القرن الاساسي . كان جوليان سوريل دون اخ بكر . ربما كنا امام

جزر هائل للطموح ؟ ان المسيّس من الطلاب هو اقل من عشرة بالمائة ...

ــ دائماً الشحاطات . السخط ، واللامبالاة ، والأخوة .. كان المسكين اوريول يقول : « أريد أن أكون رئيسا لجمهورية أخوية » : يجب أن يجعل السياسي من نفسه خادما ، كي يكون سيداً . سوف يعود في العالم كله زمن اصحاب الارادة الطيبة ، الذين لايمتلكون الا الطيب من الارادة . لقد مرّ الزمن ، والقدر ايضا . سنة **١٩١٤** عرفت شبابا هيمن عليهم الفضول الذي يسبق اولى المعارك ، وتفوح منهم رائحة مجيء الحاصدة . ولقد ماتوا .

« اعتقدت الولايات المتحدة بأن الديمقراطية تحل كل شيء ، وهي ذي أمام معضلة لاتحلها ـ تلك . ان ديمقراطيتها هي المساواة ، وايضاً احساس يضع الديموقراطيات الانجلو ساكسونية والسكاندينافية فوق **ديموقراطياتنا** : عبادة القانون ، والقانون ، هو الدولة على كل حال . في السياسة وفي الدين لم يعرف اللاتينيون ابداً متى يكونون روما ، ومتى يتصنّعونها . أو لم تقل انت ان روما كانت عكس الهيجان البحر ــ المتوسطي ؟»

* * *

في صالون المقاعد الجلدية ، حيث تناولنا القهوة ، كان جريجري ينام على احدها . وتكدّست الغيوم . فأظلمت الغرفة . قال لي الجنرال في بعض السخر :

ــ انت الذي فرضت كلمة ديغولية ، اليس كذلك ؟ ماكنت

تعني بذلك في البدء ؟

وتغيّرت اللهجة من جديد . فلا كلام عن القطط ، او التسلية البيتية التي كان يتكلم بها عن جيفارا ، وحتى عن نابوليون . لقد انتهت الاستراحة كما في غداءات الايليزيه الحميمة .

خلال المقاومة ماهو قريب من : الاهواء السياسية في خدمة فرنسا ، بدلا عن فرنسا في خدمة اهواء اليمين او اليسار . وبعد ذلك احساس .احساس بأن دوافعك حسنت ام ساءت ، **لم تكن دوافع السياسيين** .

ــ عندما رأيت السياسيين مجتمعين للمرة الاولى ، احسست حالا ، دون خطأ ، بعدائهم جميعاً . إنهم لم يعتقدوا ابداً بأني ديكتاتور ، لكنهم فهموا بأني امثل الدولة . وعندهم الامر سيّان ، فالدولة هي الشيطان ، اذا وجدت ، كفوّا هم عن الوجود . وفقدوا ما الذي يتمسكون به قبل كل شيء . وهو ليس المال ، وانما ممارسة غرورهم .

ــ لم تسهل لهم الاشياء : كانوا يعدون بالهدايا ، وكنت تعد بالتضحيات . يبقى ان الفرنسيين هم ضد الملكية ، وليس تنظيم التعليم الابتدائي منذ الجمهورية الثالثة بالامر الهيّن . وهم ايضا ضد السياسيين ، ومن اجل اسباب خطأ غالباً ، لأني، مهما قيل ، لم اعثر على الفساد الا قليلا ... قال لي جي موليه انه لايملك ثمانمائة الف فرنك من عملة تلك الفترة ، ومن المؤكد كان هذا صحيحا .(كانت وزارتي ووزارته في القصر نفسه الذي يواجه قصر ماتينيون [1] ، وكنت احتل ، قاعة الفرسان

(١) قصر رئاسة الوزارة .

القديمة ، وهو شيء يعجبني ، فيما كان يحتل هو قاعة الكهنة ...)

ــ اعترف بأن كبار السياسيين هم أنزه مما يقال ، لكن ، اعترفْ انهم يحبون القصور الوطنية . عندما رجع هيريو شرح لي في خمس دقائق انه يجب ان يستعيد قصر لاسي ، الذي خصت به رئاسة المجلس . لم اوافق لانه لم يكن رئيسا للجمعية . لم يغفر لي ذلك ابدا .

ــ يبدو لي ان الفرنسيين لا يقدّرون طويلا الا رجال السياسة الذين وقفوا انفسهم على شيء ما : فرنسا ، والسلام مثل كليمنصو ، وبريان ، حتى بوانكاره نفسه من اجل الحرب . الذين لايعرّفون بمزيج من الطموح والانتخابات والادارة .

ــ نعم .

– لقد وهبت الفرنسيين ، مالا يمكن ان يهبهم احد : ان ينتخبوا في ذاتهم افضل جزء فيهم . وشرّعت التضحية ، وهو امر ربما كان اعظم ما يستطيع فعله رجل ... الشيوعيون فعلوا ذاك ايضا بالنسبة لجماعتهم .

قال : « افضل ايضا ان تكون سالان امام محاكمنا ، من ان تكون توخاتشيفسكي ، البريء ، امام محاكم ستالين ، ولو اني اعترف ان كثيرا من جنود العام الثاني ماتوا من اجل الجمهورية ، فيما لم يمت احد من اجل الحزب الراديكالي . إن فرنسا مقبلة على التسّيس من جديد .

– فرنساك لم تكن ابدا من عالم العقلاني . انها مثل فرنسا الحروب الصليبية ، او فرنسا العام الثاني . لماذا جاء اهل جزيرة سان الطيبون كي يلحقوا بك ؟ ونحن..؟ كنت تقول اننا ربما كنا في النهاية المنتصرين ، وكنا نذهب الى اننا سوف نموت اولا . كان ديغوليو اليسار ، يأملون

فعلا ، بأنك عاجلا ام آجلا ، سوف تحقق ، في المجال الاجتماعي ، ما لا ينتظرون من الشيوعيين او الاشتراكيين ، وهم لم يتبعوك من أجل ذاك . سنة **١٩٤٠** غدت العدالة الاجتماعية وهما ، ستالين حليف هتلر ، وهتلر في باريس ، وجاء معنا الشيوعيون ، فيما بعد ، وقد فرّج عنهم : انسجم الدفاع عن البروليتاريا المسحوقة مع الدفاع عن فرنسا المسحوقة .

– والدفاع عن روسيا .

– وهذا مادفع الديغولية عن ان تصبح وطنية ، وهذا ضعفها . قوتك كانت تكمن في انك لاتملك شيئا . وما كان الديغوليون وحدهم هم الذين اتبعوك . وإذا حكمت على الاشياء من الصحفيين الذين كانوا يجيئون لسؤالي ، فان قطاعاً اساسيا من فرنسا المكافحة ، ومن المقاومة سوف يختفي ، او بالأحرى اختفى : ألا وهو الضد – الفاشية . أنت آخر زعيم ضد الفاشية في الغرب . لقد تبعتك اكثرية قدماء المقاتلين في اسبانيا ، من اسبان وفرنسيين ، ايام المعاهدة الألمانية – السوفييتية ، استمراراً منهم في كفاحهم . ولقد عجبوا ، ياسيادة الجنرال ، حين لم يجدوا فرانكو بين هتلر وموسوليني .

– حسن ان تذكر الاجانب لانك تتكلم عن المقاومة السياسية ، لا عن المقاومة الوطنية ، التي لولاها ما ثقل وزن تلك كثيراً .

– غير انهم استمروا بالقتال معنا بدلا من ان يلتحقوا بالجيش الاميركي . وهذا شيء له معناه . ولا اظن مؤرخاً في المستقبل يستطيع تفسير الديغولية بتعابير سياسية فحسب ، بل ولا وطنية فقط .. كانت الديغولية فرنسا ، وبعض شيء آخر ايضاً . عندما وصل احد اصدقائي

الانكليز الى كاليه ، سنة **١٩٤٥** ، كانت تعلو طاولة البار ، صورة كبيرة لك . سأل صاحب المشرب : « انت ديغولي ؟ » – اوه ، انت تدرك ، انا والسياسة ! إن الانسان لايدوم على كل حال اكثر من ثلاثين سنة ، لكن هذا افضل من الآخرين ... » شاءت الصدفة ان اسافر على اول رحلة خاصة للباخرة **لامارسيلييز** ، سنة **١٩٥٠** . وعليها كان وزراء في الجمهورية الرابعة . طلبت خمرة ، وانتبهت الى ان الساقي ، يجب ان يذهب حتى الشيطان كي يأتي بها ، فطلبت أخرى . ابتسم الساقي : « غيرت رأيك كي لا ترسلني الى العنبر ، اليس كذلك ؟ لكني سأذهب انا مسرور بخدمتك . الكاتب الكبير هام ، من اجل بلادنا . لاهم . » إن احد الاسباب ، التي ينظر بها الي الناس ، سيادة الجنرال ، على اني ديغولي رمزّي ، هو اني لم ارشح نفسي للانتخاب ابداً . عندما حكمت علي سنة **١٩٥٨** ، اني جد خفيف ، قلت لي بين الجد والهزل : « آه ! كن وزيراً » ، سألتك « من اجل ماذا ؟ » . في الديغولية ما يفسّر وما لا يفسّر . إن افضل عنوان كتاب ، كرّمك ، هو الذي وضعه على كل حال سوستيل : **نحو الكل وضدّ الكل** . كنت وحيداً يوم **١٨** حزيران ، واليوم انت وحيد . ربما وجب ان يكون الامر كذلك ..

اعتقد ان لا المنعزل ، محّملة حتما بعدوى خفية .

قال : « كلما كنت على حق ، كان الجميع ضدّي . لقد تعوّدت » .

– قلت ان جنودنا في العام الثاني ما كانوا ليموتوا من أجل الحزب

الراديكالي ، غير ان موتانا في معسكرات الابادة ما كانوا ليموتوا من اجل انتخابات رئيس الجمهورية في الاستفتاء العام - وقد اتخذت الذروة مثلا .

ابتسم - أو كاد . وهو لئن امتلك عبقرية الغريزة ، فانه يمتلك الميل الى الصرامة . اذكر دهشته لما قلت في مجلس الوزراء ، حول موضوع خفض النقد ، ما كان يفكر هو به . كان دائماً آخر المتكلمين . قلت : « اريد ان افهم ، لماذا تقبل الديغولية ، وهي التي لاتستطيع ان تكون الا ضد المضاربين - كما كانت ضد الكثيرين ممن على شاكلتهم - ان توافق على التخفيض ، حين يؤكد الاختصاصيون اننا نستطيع تفاديه ... » وبطريقة اكثر غموضاً حين قلت : « ان قدر فرنسا لا يطيق حرب الجزائر الا اذا انتهت باتفاق » . ايضاً في شهر ايار ١٩٦٨ : « ان الذهاب الى الشانزيليزيه يورّطنا بخطورة ان لم نكن كثراً . لكننا يمكن ان نصل الى المليون ، ويجب ان نجرّب » . ولم يكن بحاجة لي كي تأتيه الفكرة ، لكنه سرّه سماع ما قلت .

نظر الى طاولة الورق والفأل .

قالت السيدة ديغول : « راقبنا خلال عدة شهور ما فتح وما لم يفتح : كانت النسبة دائما نفسها » .

رفع الجنرال عينيه ، في نظرته ، مثلما في صوته ، البطء الثقيل الذي اعرفه :

- ماذا سيحدث لكل ذلك ، بعد زمن ؟ ..

ايضاً التيليباتيا . بعد زمن تعني . عندما اكون متّ . قال لي منذ مدّة في وسواس اكبر من الغرور : « اذا حصلت وثبة جديدة ، فانها

سوف تتم ما بدأت ، لا ماصنعه الذين جاءوا بعدي » . هل يفكّر بقدره ؟ (حياته باتت لا تعنيه) . صورة عن الارادة الفرنسية ؟ هذا وبعد ، كليمنصو كان كذلك . في المكتبة رأيت ظهر **نصرٌ في عظمته وبؤسه** بالألوان الثلاثة .

— ما رأيك الآن في كليمنصو ؟

— كان يحتقرهم اكثر مما ينبغي . لكنه كان يؤمن بالقدر . انت تذكر الحوار، الذي قال فيه لويد جورج : « كان فرانشي ديسبيري حسنُ الحظ ! — هذا شيء جيد ، هنالك خلق كثير ، حظهم سيىء » . وأنا لا اؤمن بوجود البركة[1] ، اما ضدها فموجود يقيناً .

« إن غيظه يعبّر عنْ فرنسا : في ١٨ — في ١٨ ! — حين يجيب بمقاطعته الشهيرة التي يظنها البعض الآن اول خطاب له في رئاسة الوزارة : « في السياسة الخارجية سوف احارب ، في السياسة الداخلية سوف احارب ، خانتنا روسيا ، سوف احارب . سوف اقاتل ، امام باريس ، في باريس ، وراء باريس . وهذا يكفي » . كان هذا حسناً .

« كان يعرف الفرنسيين . اذكر المنظر الذي كان يمتد امامنا هذا الصباح . إنه موقع لا يؤخذ . لكن فرسانجيتوريكس ضّيعه اظنه كان يستقبل يوميا النقابيين والرافضين .

— حاول كليمنصو جديّا ان يسوّي المسألة..

— بأية نتيجة ؟ مطاردة النمر ؟

---

(١) كلمة Baraka ، تعني عند الفرنسيين البخت .

– زاخاروف ، الذي اعطاه سيارته الرولز ، ما كان يأخذ مساعديه الا من الناس الذين تحبهم قططه . كان الملاعين يضعون الغاليريان على اسفل بناطيلهم . ربما كان إغراء القطط اسهل من إغراء التاريخ .. ما قولك يا جريجري .

– انه لمدهش ان يستطيع كليمنصو فجأة الانقطاع عن ان يكون سياسياً . إن التاريخ يغير الرجال . بين فينة وأخرى طبعاً . لكنه ظلّ يحافظ على غضبه لقد مات في حقده على فوش ، بعد ان سوّى معه حسابه ، وحقده على بوانكاره الذي لم يسوّ معه حسابه . قال له ذات يوم ، فيليب بيرتولو ، الذي دافع عنه كثيرا ضد بوانكاره : « انت فعلا خبيث ، ياسيادة الرئيس ! » الجواب : « كانت لي امرأه ، خدعتني . وابناء اهملوني . واصدقاء خانوني . بقيت لي يدان مريضتان ، فلا اخلع قفّازيّ ، إنما بقي لي ايضاً فكّان : اعضّ بهما » . واضاف بيرتولو : « كان يدفعني الى التفكير بالجنرال دوراكين : مغضب دائما ، دون ان يعرف احد لماذا » . كلمات جدّ باريسيّة .. لكنّ كليمنصو تجرأ فقال للنواب : « اطردوني من الرئاسة ، اذا كان ما تطلبونه ليس في خدمة فرنسا ، لأنني لن افعله ! » والى الرئيس كولدج : « تعال الى قرانا فاقرأ قائمة الموتى التي لا تنتهي ، كي تقارن ! » والى لا احد : « اود ببساطة لو يتجرأ الشعب الفرنسي على الاعتماد على نفسه ، وهذا على وجه الدقة المنظر الذي حرمته . لقد سما الفرنسيون دون ان يعرفون ، وارتدوا الى الوضاعة ، دون ان يصدقوا » .

وأخذ الهواء الذي هبّ يدوّم الثلج ، كما دوّم على بستان القنديل

حينما كنت انقل جمل العرافة عن الاسكندر .

قلت : « لقد مات ثيميستو كليس في خدمة الفرس ... »

« كان كلود مونه يردد جملة فخورة لكليمنصو : المجد لمن لا يخفض عينيه امام القدر ! هل تعرّفت على بوانكاره ، سيادة الجنرال ؟

– كنت في المحطة الشرقية ، سنة **١٩١٤** ، لما جاء كي يحضر سفر اول القطارات العسكرية . لم يصفق احد . لكن المدنيين رفعوا القبعات عن رؤوسهم . مرور الموت . نبيل .

النقيب ديغول في ساحة محطة الشرق ، حيث كان لي موعد ، ذاك المساء .. افكر ايضاً .. افكر ايضا بالرمّاحة الذين كانوا يدوّمون تلك الليلة في الأردين ، في غد اعلان حرب **١٩١٤** .

هل يتفق المستقبل مع صاحب بار كاليه ؟ لقد بعث ستالين بطرس الاكبر ، وجمهوريّونا ، وعلى رأسهم ميشيلي هم الذين بعثوا جان دارك . ان التحليلات العقلية هي هشّة . الراديو ؟ هل كان يكفي عرض الاشياء الصحيحة حتى يفهم روزفلت بالرغم من عدائه وربما هتلر بأن جثّة فرنسا يمكن ان تبعث ؟ ما كان يمكن ان يمنح الراديو للجنرال جيرو ؟ كيف كان يقول : « إن فرنسا ترقد ارضاً ، لكنها تعرف ، وتحس انها تعيش دائماً حياة عميقة وقويّة ... » كيف نعرّف عمل غاندي التاريخي بعمله السياسي ؟ الى اي حد يحمل التاريخ الذي يجسّده الجنرال نبرة القدر ! ما كان يحدث ، لو ان هيريو ، بعد مقابلة بوردو ، وافق على اللجوء الى لندن ؟ لو ان نوغيس وافق على قيادة فرنسا الحرة ، او ان فيشي لم تضع الماسونية خارج القانون ، فجعلت هكذا نصف افريقيا

الفرنسية تنقلب الى الديغولية ؟ لو ان بيتان استقل الطائرة الى الجزائر ؟ لو ان هتلر اكتشف القنبلة الذرية قبل الاميركيين ؟ ان مهارة الجنرال السياسية لم تتحكم في قدره . لقد حيّرني دائما قدر سان جوست ، وجان دارك ، وفريدريك الثاني (معجزة براندوبورغ ...) وماو لأنه قدر اناس مصطفين . اثنان كان بوسعهما قطع الطريق على بونابرت : سان جوست مات على المقصلة ، وهوش مسموماً .

في البيتي كلامار ، لولا قليل كان قضى . واظن الجنرال اسف لذاك القليل .

سنة **١٩٥٨** اضطلعت بعض الوقت بمهمة امنه . كنا نعرف انهم يريدون ان يطلقوا عليه النار من احد بيوت الماريشالات ، في ساحة النجمة ، عندما يقف استعدادا امام قوس النصر ، خلال المارسيلييز ، عندما دخلت مكتب جورج بومبيدو ، وكان يومئذ مدير مكتبه ، وجدته يقول لمتكلم معه شعره ابيض : « لقد اغتيل القليل من ملوك فرنسا ، هنري الثالث ، هنري الرابع .. – وأجاب محاوره بلطف ، وهو يستأذن بالانصراف نعم ، لكن اولئك هم الذين كانوا يريدون جمع الفرنسيين – سألت : من هذا ؟ – رئيس الشرطة » .

– إن الله ليستغرب ان يحصل ، لو حصل ، سيادة الجنرال ، شيء من خصومنا ، من نفوس **الدوماجو** الحساسة ، حتى اعدائنا السياسيين .

– اي خصوم ؟ الشيوعيون الذين يخرجون من الباستيل الى الناسيون ، ام الاشتراكيون الذين لا يخرجون لاي مكان ؟ النقابيون ، كما

لو انهم يستطيعون اعادة بناء فرنسا ! كل هذا وفردينانددلوب ، هم الشيء نفسه العجز نفسه : فبماذا يفتخرون ؟ بقوة ماوتسي تونغ ام ببطولة جيفارا . المسيرة الطويلة للوصول الى ملعب شارليتي ؟ هذا ليس جدّاً .

— في ايام الاستفتاء قال مدير مكتبي ، وهو من الفرنسيين الأحرار ، في مرح الى احد مدرائنا ، وهو ضدّ الديغولية : « يجب ان نسوّد الابنية من جديد ، للاسف ، اذا رحل مالرو ! — اجاب الآخر : أوه سوف نضع خطة : وهذا يعطينا وقتاً ! » . كم تلقى مكتبي من رسائل الشتم ، لاننا نبذر مال دافعي الضريبة لتغيير لون باريس ، وتخريب زنجار القرون — مع العلم ان حجارة باريس ، مثلها مثل فرساي ، تتأكسد باللون البرتقالي لا الاسود ابداً . ديوان الاغبياء . على كل حال لم يحلّوا محّلك بوهير . اما عن خلفائك ..

— انا لا خلفاء لي كما تعلم . الشيوعيون لا يؤمنون بما يكفي بالشيوعية ، ولا الآخرون **بالثورة** . فاتهم الوقت . من طول ما كذبوا وهم يطالبون بالديموقراطية ، صاروا ديموقراطيين . إنهم يريدون تهديد السلطة ، لا القبض عليها .

« انا لاارى كيف لايتمكن نظام اقتصادي ، اسمه الشيوعية ، من ان يكون افضل من آخر ، يسمى بالرأسمالية . انا لااحب الـ« إيّة ، الإيزم » . على كل حال الرأسمال واضح ، والاقتصاد الحرّ ايضا . انا افهم الاميركي الذي يقول بأن البريد يجب ان يصبح شركات خاصة ، مثل الهاتف . وافهم اقل من ذلك كيف يقيم الاقتصاد الحر الضمان الاجتماعي . انه يجيبنا بأنه سوف يستغني عنه . فليكن ، اما اذا اراد ان

يواجه بقنبلة ذرية ، ما كان يستطيع صنعها لولا الدولة ، قنبلة الدولة السوفييتية ، بل والصينية ، فاني لا اقيم كبير وزن للاقتصاد الحر . ولا ارى لماذا ماكنت لأحاور الشيوعيين ، يوم كانوا جزءاً من فرنسا ، لايقيمون فيها نوعاً من الجزيرة ، كما تعلم ؟ قلت لتوريز : « انت اخترت . وانا افهمك ، لكنك اخترت . اما انا فليس لي الحق بالاختيار » . لم يوافقني ، طبعاً ، لكنه فهمني ايضاً . انا لا اريد ان اعارض ، حتى ولو من اجل النصر ، اريد ان اجمع . ابان التحرير ، صنعت ذلك . ومن اجل هذا لن اكون ابداً ملكيا ، مهما تقوّل المشوشون . لامجال لتجمع فرنسا حول العائلة الملكية . لا مجال للتجمع حول الطبقة العاملة ، التي هي في سبيلها الى التفتت . ليس في فم الشيوعيين الفرنسيين غير كلمة « واقعي » . مع انهم اكثر احزاب العالم خيالا . لقد سوّلت لهم دعايتهم ، انهم يستطيعون الاقناع بالكل ، بدءاً من التفاصيل ، أولئك الذين آمنوا بالكل ، جملة . إنهم جدّ مغرورين ، لاينسون إلا شيئاً واحداً : إن كل هذا لااهمية له . تزعم **الاومانيتيه** انني التحقت بتوريز ابّان المقاومة !

– لا فائدة من السطو على الاسطورة ، لان الاسطورة تغدو دون اثر اذا انفصلت عمّن ولدت منه . باتت ثورة تشرين الاول بعيدة ، سيادة الجنرال .

– عندنا ، لا يمكن ان يبنى الدائم على الكذب ، تلك واقعة محيّرة وأكيدة ، غير ان الشيوعية الروسية ، بالرغم من المظهر ، هي الأقل دجلا ، لان بعث روسيا ، ليس كذبة .

كان يلمح الى احدى محادثاتنا الاولى : قلت له بأني ارى ان الشيوعية ، تتمتع بقوة كبرى ، لانها اعطت روسيا الدور الذي لم يتسنّ لها ، لا في الاورثوذكسية ، ولا في التغريب ، او الجامعة السلافية . واضفت :

– ولان المعضلة الاجتماعية قائمة . في الشيوعية ، مع ذلك ، مهزلة لا شفاء منها هي الارادة في تحويل الخصم الى « مجرم » ، وقد لعبت دورا في القطيعة بين كثير من المفكرين وبين الحزب . وليس في الاتحاد السوفييتي وحده . اما عندنا ، فلربما تغدو الشيوعية ما تؤول اليه الاحزاب ، بالاضافة الى اشياء اخرى : اسطورة في خدمة مجتمع تعاوني .

– لقد واجه الفرنسيون دائما ، كما تعلم ، صعوبة في التصرّف ، بين رغبتهم في الامتيازات وميلهم الى العدالة ! غير ان خصمي الوحيد ، وسط هذا العالم الجميل ، وخصم فرنسا ، لم ينقطع ابداً عن ان يكون المال .

« كان المفكرون معي ، ثم اصبحوا توازنيين . كما في الايام التي كانوا يدبجون قصائد التهكم عن روزباخ على شرف فريدريك . والموهبة لا تضمن في الغالب ، صحة الافكار . واضراب الاذاعة في ايار ! من الذي اضرب ، عمره ، من اجل فرنسا في هذه المؤسسة .

– إن المفكرين ليسوا فحسب زبائن **الدوماجو** والمشتركين في **الأوبسرفاتور** .

– حتى هؤلاء كانوا معي . لقد كتبت انت ان « النفوس الحساسة » ، لم تولد ولم تمت سنة **١٧٨٨** ، وان التاريخ كله لم ينفصل

عن الخيالية التاريخية .

لقد اعلنت النفوس الحساسة اني موراسي عندما اعلنت الجمهورية ، واستعماري لما أنشأت الجماعة ، وامبريالي حين اردت صنع السلام في الجزائر . افهل يخطر ببالك ان يكافح موراس كي يفرض انتخاب رئيس الجمهورية بالاستفتاء العام ؟ وهل ترى « اليمين » وقد فرح بالتأميمات ، وقراراتي المتعلقة بالجزائر ، وبضمانك الاجتماعي ؟ وانت تعرف جيداً اننا نعتنا سنة ١٩٥٨ بالفاشية ! وآمل انك ، تتذكر ، جملة نقلت عنك : « متى كانت الديكتاتورية تقع في البالوتاج ؟ » .

– قلت ايضاً : متى رأينا ديكتاتوراً لا تنقطع الصحافة عن الهجوم عليه ؟ لو ان المؤرخين يكتبون تاريخك من الصحافة لكان امراً رائعاً !

في الرابع من ايلول ، القيت ، في ساحة الجمهورية ، الخطاب الذي يقدم كلمته التي يعرض فيها دستوره . كانت الصيحات العدائية الآتية من بعيد تضيع في الساحة والجنرال يقول : « عندها ، وفي وسط الاضطراب الوطني والحرب الاجنبية ، ظهرت الجمهورية ! كانت سيادة الشعب ، والنداء للحرية ، والامل بالعدالة . وظلت كذلك عبر وقائع تاريخها العاصفة . ونريدها اليوم اكثر من اي وقت مضى ان تستمر ! » عندها صعدت في كسل بالونات الاطفال ، في ذلك العصر الصيفي ، تحمل الشعارات التي تؤكد ، وهي تتهادى ، ان الفاشية لن تمر .

استأنف قائلا : « كان عظام الكتاب الفرنسيين في القرن الثامن عشر متنبئين غير ان ما بدأ مأساة ، انتهى مرة اخرى في مهزلة . شيء مؤسف ! اولاً لأن الكتاب ، حتى ، عندما يحبون التكريم والسفاسف ،

هم مثلي في خدمة امر عظيم يتجاوزهم . »

ابان عبور الصحراء ، تركه كامو وهو يسأله ، كيف ، برأيه ، يستطيع الكاتب خدمة فرنسا : « كل إنسان يكتب (وقفة) ، ويكتب جيّداً ، يخدم فرنسا » .

قلت : « يوجد على كل حال فنانون ديغوليون : براك ، ولوكور بيزيي بالأمس ، وشاغال وبالتوس اليوم . وليسوا وحدهم .

– ماهو الفنان الديغولي ؟

– فنان يدافع عنك .

– فليكن . انت تعرف معزوفة الآخرين : نحن نرفع فرنسا اعلى مما يجب ! كأنهم لا يعرفون ما ينطوي عليه التواضع من جبن !

« مازال مفكرونا وفنانونا ، لهم وزنهم في العالم . رأيت في التلفزيون الجنازة التي اعددتها للوكوربوزيي : ساحة اللوفر المربعة وقد غدت بيضاء ، تضيئها البروجيكتورات وسفير اليونان والهند يقدّمان عطاياهما .. البرقية التي ارسلتها الحكومة الهندية : « الهند ، التي تقوم فيها العاصمة التي بناها لوكوربوزيي ، سوف تجيء كي تسكب ، على رماده ماء الغانج ، وهذا اسمى اعتبارها » . ونهاية مرثيتك : « وداعاً ، معلمي القديم ، وصديقي العتيق ... » اما زلت تذكر ؟

– **وداعا معلمي القديم . وصديقي العتيق**

« طاب مساؤك

« هوذا إجلال المدن الملحمية ، وزهور حداد نيويورك وبرازيليا .

« ذلك هو ماء الغانج المقدس ، وتراب الاكروبول ..

« سيادة الجنرال ، إن النفوس الحساسة كانت تستبعد (بصورة معتدلة في مثل حال كوربو ، الذي لفظه الأكاديميّون) هذا الميراث ، لولا ان لكل منها اباه الكنائسي . مع ان التوفيق بينها صعب : فرويد ، ماركس ، بروست ، كافكا ، الخ .. الآباء الأعداء ، الذين لا ندرك كيف التوفيق بينهم ، حين ننسى ان مدارس المقهى لا حياة لها الا في التآمر لهذا الشأن .

افكر بالفرويدية – الماركسية لماكس توريس .

اجاب الجنرال : « ديسنوس ، وماذا يدعى ذاك الفتى المسكين الآخر .ديبورد ؟ ماتا ميتة نبيلة .

ونظر إليّ :

– لماذا بات مفكرونا لا يؤمنون بفرنسا ؟

– هل آمنوا بها كثيرا من قبل ؟ في القرون الوسطى ، كانت فرنسا ، غير الموجودة ، موضوع آغان حزينة . جان دارك ؟ ماذا بقي من معناها بعد خمسين سنة من موتها ؟ وآل الأمر الى فولتير ، لقد آمنوا بالملك ، أو كرهوا الملك : الحرية كانت عند انسان ذكي مثل ديدورو هي كاترين الروسية ! إن دور الأهواء السلبية ، هو عظيم ، ولاشك ، عند المفكرين : في زماننا ، خال الذين كانوا ضد هتلر ، انهم معك . وبعد زمن ما . لنضف ميثولوجيا اليسار . لكن ماذا ؟ ان جميع مفكرينا تقريبا هم ادباء ، ايديولوجيتهم تابعة لعواطفهم . ولماذا يفهم الروائي حركة التاريخ اكثر من الرسام ، أو من الموسيقي ؟ كتب نيتشه ان العدمية (وهي

عنده ما سميته انا بالعبث) وصلت منذ ١٨٦٠ قليلا قليلا الى كل الفنانين . فكر ، بعدئذ ! كان النبوغ ، منذ بودلير الى كتابنا ، عدميّا حتى الثمانين من مائة .

– لقد اجّلت اللافاشية والمقاومة النزاع . هذه حقيقة . لكن مفكرينا يريدون ان يهيمن على الامة ما يدعونه بالفكر ، وما هو إلا قليل منه ، (كي نصل الى ايار ٦٨ ا) وانا اريد ان ندافع عن الحرية ، الا اذا كانت بديلا عن الحقيقة الوطنية التي تقوم هي عليها ، ودونها لاوجود لتلك . إن فولتير . أيان ذهب ظنه ، مرتبط بفرنسا اكثر من ارتباطه بالعقل ، ان المفكرين ، تثيرهم النيات ونحن تثيرنا النتائج . وما نفعل بذلك ؟ حفلات غداء ؟

يلتفت كي ينظر الى سقوط الثلج . هل ينتسب الى عصرنا – او الى ماض تتلاءم اليوم ، جيّداً معه ، قامته التي كتمثال مضطجع ؟

– كان بومبيدو يرى انه يجب ان نجعل الناس يتناولون الغذاء معاً دائماً . هل كان على خطأ ؟ دعوت اديناور الذي لم اكن اعرفه ابداً : إنك تدفع اناساً يكره بعضهم بعضاً لانهم لم يتعارفوا ، إلى أكل الفخذ ، فيحولهم هذا الى خرفان .

« سوف يصل اليمين واليسار الى الأوهام قبل قرن . واعلم اني لا ارتاب بالنظريات السياسية من ناحية المبدأ ، وإنما من الذكرى . عندما وصلت الجبهة الشعبية الى السلطة ، فكّرت : بما انهم وجب عليهم قتال الفاشية ، فانهم مكرهون على الدفاع عن فرنسا . وان يبنوا اذن جيشاً حديثاً . كنت اعرف المسكين لاجراغ ، احد البرلمانيين النادرين ، الذين

ذهبوا للقتال وماتوا ، وكنت اعرف بلوم قليلا . وما الذي حدث ؟ لقد صنعت الجبهة الشعبية جيشاً فرنسياً من طراز ١٩١٨ ، فيما انشأت النازية فرقي المصفحة[١] ، وطياراتها الشتوكا[٢] .

– لقد قامت الجبهة الوطنية بأعمال كثيرة ..

– أعمال كان يكنّسها هتلر وفيشي لولاي ! لقد قاتلت الحكومة الروسية من اجل الاساسي . وهتلر ايضا . ان البحر الابيض المتوسط ، منذ اليونان القديمة ، يظن بأن الخطب هي الاصلاحات . كل ما صنعناه ، يريدون ان ينسوا اننا نحن الذين صنعناه . في فترة السوق المشتركة ، كان وجودنا بين الستة وعلى كاهلنا عبء زراعتنا ، دون مقابل ، امراً مميتاً . غير ان فرنسا تظل تفتك بها الاساطير ، او ما تسميه بالأساطير .

« كنت انا ايضا اسطورة ..

« بشكل مختلف .

يتخيل المؤرخون ، ان الانسان يستطيع فعل كل شيء ، عندما يكون في السلطة . كان لويس الرابع عشر يشكو من انه لايطاع في اوفيرينا ، فقد وجد بعض المتهمين في قضية السموم ملجأ عند حاكمها . وكان نابوليون يشكو من انه لا يطاع في اورليان – في اورليان ! – الا اذا ذهب اليها ! ولم إتوصل الى اقامة ابنية مناسبة في سوق الهال . لقد اردت

---

(١) يعني بذلك أن النازية صنعت فرقاً مصفحة ، كان هو أول من نادى بإنشائها في فرنسا غير أن رأيه لم يعمل به في بلاده .

(٢) طيارات الانقضاض الألمانية إبان حرب ١٩٣٩ – ٤٥

بعث فرنسا ؛ ونجحت الى حدّ ما . امّا عن التفاصيل ، فإنه الله سوف يتعرّف على عباده ولسوف يبيّن لهم لماذا يدعى اليساريون باليساريين كي يتميّزوا عن الشيوعيين ، ويسمون هكذا منذ ان انقطع اليسار عن الوجود . لقد تعوّد هذا .

– هذا اليسار مجذوب الى اسطورية تاريخية ، شديدة التأثير ، شبيهة بشيوخ فيكتور هوجو ، يجيئون الملك ، وايديهم على قلوبهم ، كي يعترفوا له بحقائقهم . والسياسة في بلاد الأبيض المتوسط مرتبطة بالمسرح .

الأسطوري كان تارة معك واخرى عليك .

– نعم ، نعم . قلت لك : كان معي مدة طويلة ، حتى لقد حسبني تان تان . انه يعبد تان تان .

– لكن اليسار ، اذا ظل مدة طويلة غير الكوميديا ، فلأنه كان هو معارضة لليمين ، الذي كان اولا المال .

– ولقد انقطع اليمين عن أن تكون له ايديولوجية حينما كفّ عن التحالف مع الأمة . وكان يشارك في ميراث روما الجيش والكنيسة والدولة ، فاستولى عليه الشيوعيون الذين ليسوا الكنيسة طبعا ! وهم الذين تغلغوا في الجيش وارادوا ان يكونوا الدولة .

– إن يمينا مستغلا لايستطيع ان يكون الا يمينا سرّياً. إن مثل اليسار القديم كان نفس مثل الديغولية سنة ١٩٤٠ : الدفاع عن المغلوبين . لقد برر ، كلا بدوره ، جماعة الكونفانسيون وثوريي ١٨٤٨ ، وجماعة الكومونة والراديكاليين الخبثاء ، والبولشفيين ويساريي ايار .. ان المثل السياسي هو ارض الانفعالات ، التي تسكن في الافكار كما يسكن

عسكري البحر في اصداف القشريات الميتة ..

— ارادت الكومونة ان تضطلع بفرنسا : في هذا المجال هي جزء من تاريخ فرنسا . لكنها لم تقتل بروسياً واحداً .

إن المفكرين ينظرون نظرة حسنة الى الكومونة ، فيما نظرتهم سيئة الى ثورة **١٨٤٨** مع ان المثالية المغضبة هي سابقة بكثير الى **١٨٤٨** : عرفها روسو ، وكذلك سان جوست . لقد غدرت الخالية التاريخية احد عناصر عصرنا الرئيسية .

وفكّر ثم قال :

— اذا نحّيتها تماما ، ماتغدو ماركسيتك ؟

— ملكية وسائل الانتاج الجماعية ، الا ترى ذلك ؟ لكن هدف نفوسنا الحساسة لم يكن الاستيلاء على السلطة ، وانما الاستيلاء على الاوديون .

— نعم ، يوم التحرير ، ظنتني الطغمة السياسية هاويا . لقد اذهلني عجزها عن معرفة ما تتكلم عنه . الثوري الوحيد ، كان انا . كان هنالك طبعاً الشيوعيون ، الذين تعني لديهم هذه الكلمة استيلاء حزبهم على السلطة . مع ذلك ، وبعد عدة سنوات ، في ايار **١٩٦٨** ، قال زعيمهم لوزير داخليتنا : « لاتسلّموا ! » أمّا الآخرون !

— اية كلمة رئيسية لاتستمد قوّتها من تراكم معانيها ؟ الثورة ، الله ، الحب ، التاريخ .. ؟ الله تعني الخالق ، القاضي ، الحب المقدس ، سرّ العالم ، انتقل الى ..

— لاضرورة ابداً لتعريف الله ، ضروري ان تعرّف الاشياء التي تريد

تبديلها . اتساءل ، مثل ايّ كان ، عن مراحل التاريخ الكبرى الغامضة . حاولت من قبل ان افهم ما كان يفصل ، في بيزنطة ، الزرق عن الخضر . لكن عبثاً . مع اني افهم روما .

— ربما كانت روما فعلا ، مفهومة (حتى تيبير ، طبعا ...) وثورة تشرين الاول ايضا . لكن جرم متهمي موسكو يبدو اكثر تعقيداً . وكذلك التأكيد ، بأن شرطتنا ، التي لم تقتل احداً ، هي من القتلة ، وان تخرج المظاهرات في ايار ، تحمل يافطات « فلننتقم لموتانا ! » مع انه لم يكن هنالك موتى . وان تمثل الجيبيو ، وفي مجال آخر ، ماوتسي تونغ الحرية . وبعد ان مثلا عند الآخرين ، وبالمهارة نفسها ، رجلا سكينه بين اسنانه ... أود لو افهم ساحرات عصري ..

— اكتب تاريخ الاوهام : هذا موضوع جيد .

— بالرغم من ان تهديم الرأسمالية ، لم يكن ابداً عندك اساسيا ...

— لم آت ابداً لتهديم الرأسمالية . كما اني لم ادافع عنها . جئت اجدد فرنسا ضد الاوهام التي تشلها . اما كان يعرف الاممي لينين انه جاء كي يجدد روسيا ؟

« ان السياسة هي فن وضع الاوهام في مكانها . انك اذا خضعت للاوهام لم تستطع فعل اي شيء جدّي ، لكن كيف تصنع اي امر عظيم من دونها ؟

« والاوهام ، هي مع ذلك ، ما لا يوجد . وفرنسا ليست وهماً . ولا روسيا . ولالينين . ولا ستالين . ولا موسوليني . الوهم هو ماركسية المفكرين الذين لم يقرؤوا ماركس . لقد قرأت نفوسك الحساسة كثيرا من

جان جاك روسو ، ولاشك ، دون **العقد الاجتماعي** . وهو بالرغم من خرافته ، كتاب عظيم .

– إن الخرافة لاتتالى في مجال السياسة فحسب .

سألني الجنرال : « هل قابلت خوري كولومبي ؟ إنه راهب طيّب . قال لي ، عن المسحة الأخيرة : « وجدت تقريبا دائما الموقف نفسه ، بخاصة عند النساء : حضرة الخوري ، سوف افعل ما تقول ، لكنك ترى انه ليس كبير الاهمية . انا لم أؤذ ابداً احدا : ان الله الطيب لن يطردني . »

« اعترف بأن تثبيت ما يؤمن به الكاثوليك هو شيء هام . والبشر لا يعرفونه عندما يموتون ؟ ومع ذلك ، هذا الخوري على حق . إن عدد المسيحيين الذين يعتقدون بأن الله يقبل من لايفعل الشر ابدا ، هو اكثر من الذين يؤمنون بالجحيم . لكل ايمانه الشخصي الصغير في كيسه ، من الماركسيين حتى الكاثوليك ، صدّقني ... على كل حال ليس الامر تماماً سيان .

إن الكنيسة جزء من حياته ، لكنه يقول عن البابا : « والآن ، ايها الأب المقدس ، لو تكلمنا عن فرنسا ؟ » وقليلا ماذكر الله ، وبخاصة في وصيّته . اما المسيح فلم يذكره اية مرة . واعرف صمته حول بعض المواضيع الاساسية . صمتاً ولد من كثير من الخفر والغرور ، اذا كنا نستطيع ان نسمي غرور الحق بالأسرار . لو انه تناول القربان في موسكو لكان امراً واضحاً : إنه يؤدي شهادة . غير انه لم يتناول في موسكو . وأجد ايمانه ، عندما لايبدو لي لغزا ، على عمق يهمل معه ، كل مجال ،

يضعه قيد المناقشة . ولهذا فإن لا ادريتي لاتزعجه . ايضا لاني لست ضد الكهنوت ولا ضد المسيحية، في زمن غالب المفكرين فيه ضدّهما، على عكس ماكان جيل شبابه: بيجي، وجامّ، وكلوديل. وهو يحار باللاادري الصديق للمسيحية اكثر مما يغضبه، حتى ولو كان صديقاً ايضا للهندوسية . ان ايمانه ليس قضيته ، انه بديهية مثل فرنسا . لكنه يحب ان يتكلم عن فرنساه ، ولايحب الحديث في ايمانه . فهو يشمل مجالا خفّيا هو مجال المسيح ولاشك ، وسؤالاً ايضا ، لا عن الايمان . وإنما على الصور التي يتخذها . لقد ثارت دهشته ، حين ردّدت عليه الجملة الهندية : كل إنسان يذهب الى الله عبر آلهته . سألني ذات يوم : « ما تعني عندك اعمال العمالقة الدينية من امثال بيتهوفن وفيكتور هوغو ، مع ان ايمانهما غامض ، دون ان يكونوا من الفولتيريين ؟ »

ذات يوم قال له في خجل أحد معاونيه القريبين منه ، وقد كلفه بجمع الوثائق التي يحتاجها الجنرال في خطبته المقبلة (في كندا ؟) :

« – قدرت أنك ربما آل بك الأمر إلى أن تختتم بالعناية الإلهية ، فالوثائق عنها هنا . »

فأجاب :

« – أشكرك . لا خوف عليّ من الله . »

جملته كانت تعني ولاشك : « هل تظن بأني أنحّي ذكر الله ؟ »

لكن فرويد ما كان لينظر في خفّة إلى الصورة التي يعطيها عنه ..

قلت : « كان جيد يتمسّك ، بآخر حياته بفكرة وجدتها دائماً غريبة : « الدين ، عندي ، هو امتداد للأخلاق . » في بدايته كان

تفكيره عكس ذلك ...

– الخطيئة ليست مهمة . الأخلاق الصحيحة توجّه الإنسان نحو ما يحمل في ذاته من عظيم . والعظمة يمكن أن تكون صغيرة ، لكن لا مانع من ذلك . كل هذا ليس جدّاً . حينما قلت : أتيت كي أنقذ فرنسا من الأوهام التي تدفعها عن أن تكون فرنسا ، فهمني الناس . مع أنها دائمة ، تلعب دوراً هامّاً . وهي لاتطّن طنين الذباب حول التاريخ . إنها تتتابع أيضاً . أو هل لها تاريخ ؟ إنها تتراوح بين يسار الضفة اليسرى[1] إلى إحساس النفوس الحسّاسة الذي يؤدّي بها الى المقصلة . البارحة كان ظل الغيوم يمرّ عند قدميّ وأنا أتنزه ؛ فكرت بأن الأوهام جزء من الإنسانية ، مثلما الغيوم جزء من السماء . لكن هل تتتابع الأوهام مثلها ، أم مثل النبات ؟ وأمام الأشجار ، التي تعرف ، الواقعة إلى يمين الباب ، أفكّر بتاريخ الأمم . إنه عكس الغيوم والاضطلاع بفرنسا سنة **١٩٤٠** ، لم يكن قضيّة بستانيّ .

ورافقنا شبح ماكس توريس الدميم الفولتيري . الفرويدية – الماركسية ، **العمل الفرنسي** ... وليس من نافلة الأمر ، أن تلتقي أعشاب الأستاذ بيركلي المائية ، بغيوم زعيم فرنسا الحرة . وغيوم شبيهة فيّ ، وفي كم من الآخرين ؟

كما لو أن هذه الصورة تتجسد في كل الذين يستخدمونها واحداً بعد الاخر ، كل منهم من أجل نفسه ؛ كما لو أنها وجدت قبلنا . كما لو

---

(١) الحي اللاتيني .

أننا نعكس ، في مرورنا ، نفس الضياء المجهول .

قال الجنرال : « يجب علينا ، مع ذلك ، أن نعرف ما فعلنا . »

– ما فعلت أنت .

– ما فعلته ، لم يحدده عندي أبداً ، ما كنت أفعله . وبخاصة ١٨ حزيران .

« الهام – وربما عند كل الرجال الذين ارتبطوا بالتاريخ – لا ما كنت أقول ، وإنما الأمل الذي كنت أحمل . لقد أعدت فرنسا لأني أعدت أمل العالم بفرنسا . وكيف يؤخذ الإنسان برسالة لا أمل فيها ، إني أسألك ؟ عندما أموت سوف يتبدل هذا الأمل لأن قوته نابعة من مستقبلنا . أوه ! أنا لا أخشى ألاّ يبقى شيء من هذا الأمل . إن الدستور هو غلاف : ومن الممكن تغيير محتواه . وأي شيطان يرميه في سلة المهملات ، إذا كان ذا قيمة ؟ لكنّ الذي له قيمة ، لا يمكن التنبؤ به . إن رجل التاريخ هو خميرة ، هو بذرة . إن شجرة الكستنا لا تشبه ثمرتها . ولو أن الذي صنعت لم يحمل أملاً في ذاته ، كيف كنت أصنعه ؟ العمل والأمل كانا لايفترقان . يبدو أن الأمل مقصور على البشر .. واعترف أن نهاية الأمل عند الفرد هي بداية الموت .

« ربما كنت على حق في قولك ، ان الديغولية ، عند كثيرين ، تعرفّ بما يفصلها عن السياسيين . أما ، حين وافقت على الكلمة ، متأخراً ، فقد كانت عندي اندفاع بلادنا ، الاندفاع الذي استعدناه . سوف أسمي أول جزء من مذاكراتي **مذكرات الأمل** . وأنا بعيد عن أن أعدّ الجزء الثاني بالشعور نفسه ، أمّا الثالث فلا نتكلم عنه ! ما صنعناه سوف

يتحول ، وأريد أن توجد شهادة عنه : « **هذا ما أردت . هذا ، وليس شيئاً آخر .** » ولهذا بت ولا وزيراً لديّ غير الغيوم ، والأشجار ، والكتب .

أنت تعرف الجملة القائلة : « إن ارتعاش غصن على السماء هو أهم من هتلر . »

– والسرطان ولاشك – عندما لاينتابك أنت أو كائناً عزيزاً عليك ! جملة غريبة الأنوثة .

– قالها رجل ، على ماأظن .

– هتلر كان يقولها للذين يفضلون الدفاع عن أنفسهم بالأغصان بدلاً من الدبابات . لكني ، بت أفهم ماتعني .. رأيت ، منذ عدة شهور ، كثيراً من الأغصان .

– من الممكن أن نأتلف مع الحياة التي ليست حياة البشر ..

– أحبّ الأشجار ؟ وأحبّ الحطّابين أيضاً . والغصن لم يكن أكثر أهمية من هتلر ، عند رفاقنا في معسكرات الإبادة . إن الفعل التاريخي ليس فعل رجل فحسب ، حتى ولو كان ذاك الرجل نابوليون . إنه يضطلع بأعمق أهواء العديد من البشر ، وببؤسهم وأملهم . كيف لانرى الأشجار ، هنا ؟ على كل حال ، إن فرنسا قائمة منذ زمن أبعد من أقدم غصن في الروضة . ولا ندعنَّ الخلود يخدعنا – أعني خلود الأغصان الصغيرة ...

« هل تعرف حوار مولتكه – وهو ابن ثمانين – مع بسمارك ؟

– أيها ، سيادة الجنرال ؟

– قال بسمارك « هل يوجد ، بعد مثل هذه الأحداث ، شيء أهل لأن نعيش من أجله ؟ »

– أجاب مولتكه : « نعم صاحب الدولة : أن نرى نموّ شجرة . »

وفكر ، ثم استأنف : إن رجال التاريخ هم بالضرورة مقامرون .

عندما يتكلّم بلهجة البوح ، تتغضّن عينه ، ويبدو بوجه ساخراً :

– لم يكن سان برنار متأكداً من سحق ابيلار . ونابوليون لم يكن موقناً من النصر في صبيحة أرستراليتز . في بورودينو خال أنه منتصر ، لأن الروس انسحبوا من أرض المعركة .

« كم عدد الأسرى ؟ – لا أحد تقريباً ، صاحب الجلالة . » ففهم أنه خاض معركة خلّباً ، وأحرز نصراً خلّباً .

– لابدّ وأن الإسكندر الأكبر تساءل قبل لقائه مع بوروس ، كيف ستدور معركة الهند .

– إن الحيرة في السياسة الكبرى لاتختلف كثيراً عن الحيرة العسكرية .

« لقد حان الوقت كي نحلّل عاملاً حاسماً في التاريخ : اللحظة التي **يمر** بها **التيار** . معنا أو علينا : الفيرماخت[1] سنة٤٠وسنة **٤٤** ، التحري وأيار **٦٨** . واحياناً يذهب بأسرع مما أتى . أتحدث عما يمنح الروح لشعب، أو جيش .

---

(١) الجيش الألماني .

أفكر بالجزائر ، وبخاصة بفييتنام . كم مرّة سمعت ، من قبل : « لا يمكن أن يبنى جيش من الأنّاميين ! » أجبت :

– في الفن أيضاً ؛ الطابع الخفيّ موجود : عندما يصبح بودلير بودلير .. **والسّيد**[1] **الخالدة** ..

– **وسيرانو** ، الذي يعودون إليه ...

– أما زلت تحب روستان ؟

– نحبّ شبابنا . ربما كان التيار الذي يمرّ ما دعته روما بالخطّ .

« أخيراً بعد بضعة أيام **١٩٧٠** ... إننا يفصلنا الآن جيل واحد فحسب عن دخول العالم الثالث إلى المسرح ... أما في الولايات المتحدة فقد احتل مكانه .

– إنه زمن نهاية الأمبراطوريات ...

– ليس الأمبراطوريّات فقط . غاندي ، تشرتشل ، ستالين ، نهرو ، حتى وكينيدي ، إنها الجنازات العظيمة .

ويرفع ذراعه بالحركة التي نعرفها جميعاً له ، والتي لم أرها منه أبداً إلا مع الجمهور .

أفكر بالمحرقة التي اسقطت من جثّة غاندي الكرات المشتعلة ، وبصفّارات القطارات الروسية وهي تعلن موت ستالين عبر العزلات السيبيرية ، وموكبي تشرتشل وكينيدي ، وفيلة نهرو . كلها خلال حياة واحدة .

---

(١) مسرحية كورني « السيّد Le cid » .

قلت : « بقي ماو في مكانه ، وإلى حدّ ما ناصر . »

– ماو نعم . إفريقيا من يدري ؟

أفكر بطائرتي سنة ١٩٥٩ ، في الفجر فوق مستنقعات التشاد العظيمة ، وبالجندي الأسود الذي أغمي عليه تحت شمس الكونكورد المتواضعة ، يوم ١٤ تموز حيث جرى توزيع أعلام الجماعة .. وبالرئيس سنغور ، وبالزنوجة التي أعلنها ، فيما كانت ملكة كازامانس الميروفنجية تقود ، يتبعها قطّها العظيم ، المؤمنين بها تحت وابل من القابوق الكسول ، إلى الأشجار المقدّسة . سنغور كان يعلن أيضاً ، عن دخول العالم الثالث إلى المسرح ... آخر غطسة في آسيا ، وآلاف الزنابق انحنت بإشارة واحدة ، وماو ، والمدينة المحرّمة ، وشمس الصين العظيمة من بين ستائر الحرير الأبيض ... هل يقف العالم الثالث عام ٢٠٠٠ في مواجهة الحضارة التي اكتسحت القمر ، وتجهل شبابها ، والتي يحرق الطلاب أنفسهم فيها مثل الرهبان البوذيين ؟ ويوزع الجنرال أوراق اللعب ، دون أن ينتبه ، على الطاولة وهو ينظر إلى سقوط الثلج :

– سوف يقام صليب لورين كبير على التلة التي تهيمن على الأخريات . ويستطيع الناس جميعاً رؤيته . وبما أنه لن يكون هنا أحد ، فإن أحداً لن يراه . سوف يدفع الأرانب للمقاومة .

في ناحية الهضبة ، يوجد فقط على مدّ النظر ، تموّج الغابة بلا عمر .

– كان ستالين على حق : في النهاية ، لا يربح سوى الموت .

قلت : « ربما كان المهم ألا يربح حالاً ؟ كانت مصر تفكر بأن

المومياتُ ، والتماثيل ، والأهرامات لن تحمي فرعون بعد آلاف السنين . لكنّها كانت تشيّد الأهرامات .

– ذلك واجب ! ..

عمره ثمانية وسبعون أو تسعة وسبعون عاماً . قال : « أنا لا أزعم أن العمر لم يلعب دوره في قراري . » يبدو لي الآن أنه أكبر مني بكثير ! إننا لانرى إلا الآخرين يشيخون . سلطته تظلّ آسرة ، وهو لا يحاور الشيخوخة ، وإنما « وما يهم » رواقيّاً يعني أمره التاريخ الذي صنع . لقد استشهد في إحدى خطب ١٩٤٠ بـ : « يارجل السهل ، لماذا تصعد في الجبل ؟ – كي أنظر أفضل إلى السهل ... » كنت من ذي قبل إذا لمحّت إلى الإحساس الديني ، أجاب بحركته التي كأنه بها يطرد الذباب . فقال :

– يلومني البؤساء ، الذين لم يصنعوا بوجه عام شيئاً على « تقلّباتي » . ألم يتغير العالم الذي عملت فيه ، قل ؟ كما لو أن السياسة المستمرة ، هي سياسة متشابهة ! إنهم يتخيلون ، ولاشك ، أن الحياة تقوم على أن تقلّد طفولتك ، وأن تطلب ، مهما كان الثمن الحلوى !

– لاأتصور العالم ، تبدل في جيل كل هذا التبدل ، حتى إبان سقوط روما ...

– كانت السياسة في أوروبا هي الأمّة . فهل بقيت الأمّة ، ماكانت ، بعد القنبلة ؟ لن نكرر دائماً : القنبلة الذرّية ليست سوى قنبلة أقوى من الأخريات . لقد جاءني اختصاصيّون فقالوا : إن الاكتشافات لاتحمل إلينا إلا أضعاف وسائلنا الخاصة . نعم ، نعم ... المكروسكوب

الكهربائي ليس سوى نظّارة ضخمة : إنه يجعلنا نكتشف ما لم نكن نبحث عنه . إنه يحلّ بعضاً من مشاكلنا ؛ ويحمل لنا مشاكله . إننا لم ننته بعد من القنبلة الذرية . لقد بدأ أقوى سلاح بأن جلب لنا السلم . سلاماً سخيفاً ، لكنه سلم على كل حال . ولننتظر البقية .

« مع نمّو القطاع الذي يدعى بالثلثي ، ما يغدو صراع الطبقات القديم ؟ لقد قلت في أيار جملة أؤيدها : إن مأساة الطلّاب ، ليست أبداً مأساة جامعية ، إنها أزمة حضارة . لقد خلق شهر أيار كثيراً من الخرافة — بميت واحد ، وأي ميت ! صدفة ! لكن إلى أي حدّ تأثّر به الشباب الفرنسي ؟

قالت السيدة ديغول : « أكدّ نحّال ، أن النحل في أيار كان مسعوراً أيضاً ، في كل فرنسا . »

أذكر فندق لابيروز ، عند عودته : « لو أني قبل موتي ، استطيع رؤية شبيبة فرنسية ... » وماكس توريس ، في مكتبي في الباليه رويال . أجبت :

— تبدو لي مأساة الشباب نتيجة لما دعي بخور الروح . ربما كان هنالك شيء منه ، في أواخر الأمبراطورية الرومانية . إن أية حضارة لاتعيش دون قيمة سامية . وربما دون تسام ...

— هل تتصور أن القيمة السّامية ، ليست قيمة دينية ؟

— كان روبيسبيير مؤمناً فعلاً بالعقل وبالأمّة . وبما يجب أن يعمل للتمكين لنصرهما . ولقد قام بذلك حتى المقصلة . وسان جوست لم يطأطيء على أربع أمام أهل ستراسبورغ . كما لم يطأطيء سان برنار على

أربع أمام الطلاب . إن الجامعة لاتعرف ما تريد ، والدولة الغربية لا تعرف ما تريد . والكنيسة لا تعرف ما تريد . لا ولا الطلاب ، في الحق . هل تعتقد بأن أية حضارة ، قبل حضارتنا ، عانت الإحساس بالخطأ ؟

« إن أية حضارة لم تملك هذه القوة ، أية حضارة لم تكن غريبة على قيمها إلى هذه الدرجة . ولماذا نغزو القمر ، إن كان من أجل الانتحار فيه ؟

فرّ جريجري كما لو أنه خاف ، وتذكرت قط السيدة خضري باشا ، التي كانت لا تحبّ سماع الحديث عن الموت .

تغيّر النور : عاود الثلج سقوطه ، وتلمع أمامي من أثر النور الجديد ، العاب أسلاك الحديد الصغيرة ، آلات روّاد الفضاء على أرض القمر ، وأنا أقول :

– عجيب أن نعيش نهاية حضارة ونحن واعوان بها ، الثورة الفرنسية ، والثورة الأمريكية تتابعتا في نهاية مجتمع فحسب ، الفلاسفة الرومان كانوا ينتظرون الرواقية ، ولم تصمد الستودا طويلا أمام المسيحية ، التي لم تكن تعباً بها كثيراً .

– كانت يائسة والبعث لم يكنه ، والأمل يقهر دائماً القلق .

– لقد سبق الزازو الهبيين والرافضين ؛ لكن اساتذة ذلك الوقت لم يصبحوا من الزازو ؛ قال لي فاليري عن جيد : « لااستطيع أن أنظر جدّاً إلى رجل يهتم بحكم الشبّان . » وأجبته أن الشباب شيء والشبان شيء آخر .

– طبعا : كفرنسا والفرنسيين ! لكن أية حضارة ، قبل حضارتنا ،

عرفت شيوخاً عظاماً أعداء لشبابهم؟ لقد قلت أن أساتذة القرون الوسطى لن يصبحوا من الزازو. هنالك شيء لايمكن له ان يدوم: عدم مسؤولية الذكاء، إما أن ينتهي، أو تنتهي حضارتنا. إن الذكاء بوسعه أن يهتم بالروح، كما اهتم طويلاً بالعالم. أو باختصار بالحياة، أو بنفسه، هل أعلم؟ لقد اهتم بالحياة التاريخية: بالسياسة، بالمعنى الحقيقي. وهي تغدو لا مسؤولة بالقدر الذي يهتم بها. في روسيا والصين ليس هو كذلك. لو أنه مونتيسكيو كان يقول لي أشياء هامّة. لكني عندما سألت مفكرينا، قالوا لي أشياء دون أهمية. هل ادركت؟ كانوا يلعبون دوراً. غالباً بتجرد، أحياناً في كرم، **لكن دون أهمية**. ولقد يستطيع الغباء الكلام دون ان يقول شيئا. أما الذكاء فلا. وسوف ترى. يجب ان يعرف الانسان بماذا يفكّر، بوسعك ان تناضل من أجل أهواء غامضة، ولكنك لاتستطيع– هل ترى ما أعني؟– أن تناضل دائماً من أجل الهراء. إنهم ينتهون الى بيع الجرائد اليسارية في الشوارع وليس على نقص في الشجاعة! غير أن هذه الشجاعة لاتلتقي أبدا بعدوها. لو أني قلت لستالين، أن خصوم الدولة– الحكومة– عندنا لن يجدوا من يسجنهم، لظن بأني سأجنّ.

– كيف بدأت مع ستالين؟

– خلال؛ مالايقل عن دقيقة، لم يتكلم أحد منا. كان هذا طويلاً. ثم....

وهزّ بكتفيه:

– ثم ظننت أنه سوف يكلمني عن أوروبا، أو عن جماعته في لوبلين، لأنه كان يتمسك بهم كثيراً! قال لي: «إذن، جئت تطلب مني

ثانية توريز؟» وتابع: «لو كنت في مكانك، لما أعدمته: إنه فرنسي طيب.» واجبته: «إن الحكومة الفرنسية تعامل الفرنسيين تبعا لما تنتظر منهم. وانتم؟»

الجنرال لا يروي أبداً، حتى في المحادثة. «دجاجات ستالين، طيبة عند تشرشل». لكن الآخرين ينوبون عنه، أعرف عن وليمة الكريملين، والوزير الروسي المغفل الذي يشرب على صحة ستالين، وهو أمر ممنوع. ورفع ستالين كأس فودكاه، التي من ماء، لأنه لايشرب الكحول إلّا في شقته: «الرفيق فلان هو وزير النقل؛ واذا لم تسر أمور النقل (يسحق ستالين كأسه على الطاولة)... فسيشنق» قال لي الجنرال، وهو يفكر بهذا المشهد: «كان طاغية آسيوياً، ويريد نفسه كذلك».

ثم، حكومة لوبلين، التي لم يكن الجنرال يريد الاعتراف بها، حينما انتهت الوليمة، ذهب ينام. وفي الثالثة صباحاً، جاء مولوتوف، الذي لم يجد وزير الخارجية بيدو، إلى جاستون بافليفسكي: «ألا تريد أن تقول للجنرال ديغول أن الماريشال يريد ان يعرض له فيلماً؟» ونزل الجنرال الى صالة الكريملين الصغيرة. فيلم وطني يسقط فيه الألمان كميّات واحد بعد الآخر. كلما مات واحد تقلّصت يد ستالين على فخذ الجنرال. «عندما حكمت بأنه سبب لي مايكفي من بقع زرقاء، سحبت فخذي.»

كان هتلر مايزال حيّاً...

في الصباح، وقعت المعاهدة الفرنسية السوفييتية، والثلج، مثل الذي يحيط بنا- أكثف...

أسرّ لي سرج اينيشتاين، أنه لما جاءه الأمر بالتوقف عن اخراج

الشرط الإنساني: «لم يزعجوني عندماأخرجت **بوتمكين**، لأني كنت مجهولاً تقريباً ولأنهم أعطوني ستة اسابيع لصنع الفيلم، حتى إذا لم ينجح، كان الأمر عندهم سيّان. كان عمري سبعة وعشرين عاماً. لكنني لن أطلب الآن مقابلة ستالين، لأنه إذا لم يفهم، لايبقى لي سوى أن أنتحر.»

وكيف مات اينيشتاين.؟

قال الجنرال: «إن علم النفس لايفيد كثيراً. انك تعرف حالاً، بل مقدّماً! إن روزفلت ليس تشرشل، وأن خوروتشيف ليس ستالين. إنك لا تتعلم شيئاً شخصياً عن محاوريك. وهذا لانفع منه، انك تتعلم كيف تعرف تقنيتهم في المفاوضات. لااكثر. يجب ألا يظن الانسان أنه ساحر حين يكتشف أن المرض يجعله سريع الانفعال، أما الأمم فإن عصرنا يضعها غالباً أمام مواقف لاسابقة لها. إن الناس حين يقرؤون كوستين يتكلمون عن روسيا الخالدة، غير ان كوستين لم تعرف الحزب الشيوعي. الذي له وزنه!

إنه يرى في معرفة الرجال إحدى مقوّمات الزعيم، وهو لايستعمل عن طيب خاطر كلمة علم النفس، ألّا يخدعه البشر، أن يعرف كيف يخدعون أنفسهم، أن يعرف إلى أي حدّ تعطى الثقة. وأن يعرف ماهم أهل له– وهو الشيء الذي يخطئون غالباً فيه؛ وبكلمة: أن يعرف مايصنع بهم. أما ما بقي فزخرفة أو ثرثرة.

هذه المعرفة سمتها من أعلى إلى أدنى. وهي لاتنطبق إلا جزئياً على محاوريه التاريخيين. إنه يدرس جغرافية الخصم. كان حريصاً على تحديد موقفه، كما يحرص الزعيم الديني على تحديد إيمانه أولاً. من رفض إيمانه،

رفضه نفسه، ولهذا اختلف مع روزفلت أكثر مما مع ستالين. عند روزفلت، كانت فرنسا لاقيمة لها، أما عند ستالين فقد انقطعت عن أن تكون هامّة عسكريّاً، لكن ستالين كان يعرف ان الاتحاد السوفييتي، في أيام بريست ليتوفيسك، ماكان بذي وزن أبداً، ومن ثمّ، كان ستالين يجد في الجنرال زميلاً في التحدّي العنيد، لاعبقرياً الى جانب المدفأة. والجنرال الذي عرّف روزفلت بأنه «محترف ديموقراطي» لم يعرّف أبداً الجورجيّ.

حيوان سابق للتاريخ. معتزل. لكنه يتوقف عند الناس الذين يحيط ببعضهم المجهول دون أن ينفذ إليه.

قال: «إن اكثر صفاته تعبيراً، على ماروي لي، هي التالية. يظن نفسه وحيداً، مع أن مولوتوف وراءه. يغطي بكلتا يديه اجزاء كبيرة من الكرة الارضية الموجودة على مكتبه؛ ثم بيد واحدة أوروبا، ويتمتم: «إنها صغيرة، أوروبا...»

«قابلت ستالين، ولم أقابل روسيّا. بولونياي. كانت مختلفة.

آسف: روسيا هامة!

– كان يمكن للحياة في الاتحاد السوفييتي، أن تأتيك بالشطط بلا حدود الذي ادركه كثير من الكتّاب الروس العظام، ومازال قائماً. كان ستالين يردد: «عندنا توجد سبارطة وبيزانطية. عندما تكون سبارطة، يكون الأمر حسناً.» وليست بيزنطية هي وحدها التي تجابه سبارطة: هنالك السكارى الملهمون، والهزل السوفييتي، وهو ليس أكثر مرحاً من الهزل الروسي، ومجال صعب تحديده.

«سنة **١٩٣٤**، تعرفت إلى زعيم البوليس في **الشمال الكبير**. السكان يتلقون كحولاً – يقتلهم. فوجب إحلال النظام. وبعد أسابيع زحافات تجرها الكلاب، وصل رئيس الجيبيبو إلى نوع من العزبة على المحيط المتجمد، زجاجات فودكا، وروسي ميت حفظه البرد؛ وبنجوانات وحيوانات اخرى، وعلى ماقام مقام الطاولة، صفحة جريدة من سان فرانسيسكو، وإعلان زواج يحيط به سواد شحّاري: «فتاة جيدة من كل ناحية، ترغب بالزواج من روسي، تفضّله سيبيرياً، حاله قريبة من حالها.» تاريخ الجريدة: **١٨٨٣**. ورزم الربلات إلى جانب، يمسك بها حجر...

ونادي روستوف، واعضاؤه من المشوهين فحسب، **لأن** سبب انشائه، هو إلصاق الإعلانات، المنزوعة أوراقها من الدفاتر، على قباب الكاتدرائية البصيلية (لم يكن هنالك ورق): تخلى الله، وكيف لم يصلوا إلى السجن (وأفترض أن أمرهم، انتهى إلى هذه النتيجة، فقد أتيت روستوف قبل حملات التطهير)، لأن الله تخلّى عنا عندما سلم روسيا الى البولشوفيك؟ سر. كان الله يسوّي المسألة: كل سنة كان يسقط بعض لاصقي الإعلانات، فينكسر لهم فخذ أو ذراع، ويأخذ إلى قربي العرجان كؤوس الفودكا مع أحبابهم الذين سوف يكسرون أفخاذهم السنة المقبلة.

كان أهرنبورغ يقول: «روسيا ملأى من الكرامازوف». معه عرفت أجمل نمري الروسية. في لاأدري أية بلدة سيبيرية، كانت المعامل تلصق، تحت توقيع ستالين: العلائق الجنسية ممنوعة منذ الآن فصاعداً. عدة خطب: أيها الرفاق، كل هذا الوقت الذي نستخدمه في اللذات

الفردية هو ضياع في الإنتاج ! إن الجنس هو أسوأ من الفودكا ! قال أهرنبورغ : «عندما ذهبت إلى البريد، طلبت رسالة تلغرافية. موظفة بريد شقراء بجدائل ، عشرون عاماً : « رفيق إهرنبورغ ، مزّقت . كانت تقول : العلاقات الجنسية بين الرجال ممنوعة . أغبياء في موسكو ! كأنه ممكن وجود علاقات جنسية بين رجال !» عندها قلت فرحاً : «رفيقتي الموظفة ، أنت غبية ! دوراك!»

« مثل هذه الحكايات لاتعد . لاأعتقد أنها دون معنى .

قال : «لا»

ـــ إنها تمتزج ، كما في الروايات الروسية ، بالماء العميق . في السنة الماضية رايت **كومسومولا** انقلب رأساً على عقب بعد قراءة دفتر نقل.عليه انجيل يوحنّا . ولقد كان هذا الدفتر المكتوب بسعر أعمال تولستوي الكاملة . أصغيت الى محللة نفسية (الكلام ممكن الآن في موسكو : ويد البوليس فوق الرؤوس ، قريبة جداً منها ، دون أن تمسك بها من خناقها)

قالت لي :«عالجت منذ قريب أبن أحد مفوضي الشعب . السؤال التقليدي :«بماذا تحكم أكثر ما تحكم ؟ ـــ أني ، اخيرا ، وحيد . وحيد ضدّ كل الاخرين . وحيد ضد كل العالم .» أسرّ لي بوخارين ، حالماً ، وهو يسير معي في ساحة الأوديون وقد أحاطت بها أنابيب المجارير التي أخرجت من خنادقها :«والآن ، سوف يقتلني ...»

« وهذا ماحدث » :

« عند دخول الاتحاد السوفيتي الحرب (إذا كان بوسعنا أن نقول

ذلك!) اصطف الاسرى البولونيون عند الروس صفاً عسكرياً كي يصغوا إلى الضابط البولوني الذي قال لهم أنه يجب عليهم الدخول في جيش التحرير البولوني ، إلى جانب الجيش الأحمر : وتقدم الضابط ببطء ، يتكىء على عصوين ، لأن الروس عذبوه ، في الشهر الفائت ...

« هل تذكر ستالين مرحاً أمام مصوري الحلف الألماني السوفيتي ؟ طبعاً ، لقد رأى سواهم ! قال لي ، دجيلاس ، الذي رآه قبلك أو بعدك بقليل، أنه نتف شعره. عندما عرفته أنا كان نقيباً قوياً في الدرك ، يهتم في صمت بالعالم ، والرعب ، وغليونه وشاربه الأيمن ...

ـــ سنة **١٩٤٤** ، كان قطاً عجوزاً قوياً جداً منتوفاً ؟ القط كان وحشاً . كان يدعي أنه في المستقبل فحسب ، ولقد أثر بي برسوخه في الماضي .

ـــ الماضي دائماً موجود ، في روسيا ! في مكتب لينين ، قريباً من خرائط الجبهات في الحرب الأهلية ، كدسة أعمال ماركس يقوم عليها قرد جاوي دارويني من البرونز ، قدّمه صناعي من الولايات المتحدة ، أراد ان يقيم معامل للأقلام لأن الحكومة السوفيتية قررت أن تعلم الأطفال الكتابة . إنها الثقافة ! رأيت الدراما التي أخذت من **عشرة أيام هزت العالم** .مؤثرة لكنها خرافة بحت ، اكثر من **اكتوبر** العبقرية لاينيشتاين . في اليوم التالي زرت متحف ماركس ـــ انجلز . كان من الفراغ بحيث وجدت في آخر قاعة عشاقاً في عناق أهدأ مما على مقاعد الحديقة العامة ... على الهامش طبعا ، يقظة لينينغراد الهائلة ، والمقبرة ذات الخمسمائة ألف ميت ، ونصب ستالينغراد المبتذل الملحمي ، الذي هو بحق كنصب سبارطي ...

ـــ وماذا وراء الروائع؟

ـــ عند جوركي ، كان ستالين متهكماً وغريباً . المرح الصامت . أما في الحق ، فأعتقد أنه كان يهيمن عليه (على العمق نفسه في إرادتك للتجمّع) وسواس الإحصاء : لو أننا قتلنا كل الذين عرفوا اولئك الذين عرفوا ، إلخ . لوصلنا إلى المجرمين الحقيقيين ، أو كنا شللناهم . « معي أنا ، لن يوجد أبداً فرانكو . » لم تكن تعنيه براءة الذين يقتلهم أو يرسلهم الى السجن . واذكر جوابه الى دجيلاس، الذي شكا من إنتهاكات الجيش الاحمر في يوغسلافيا : «لقد تألم بما يكفي فلا نسأله حساباً !» وبخاصة أسرى الحرب الروس الذين أرسلوا إلى السجن ، حتى من فرّ منهم من الأسر .

ـــ هل يبرر وسواس الإحصاء الطاغية ؟

ـــ ألا تذكر الحوار مع بوخارين ، وكان مايزال في السلطة . قال بوخارين : « من أجل تصفية مسألة الكولاك حسب النظرية ، يجب أولاً قتل ثمانية ملايين .ـــ وماذا فيها ؟» كان يبدي بساطة غريبة ، وساحرة نوعا ما : باختصار ، حية بشارين .

«ثم حديثي مع كوسيجين، سنة **١٩٦٦** قد يقول لي قائل انه سياسي، غير انه كان الوحيد الباقي من ثلاثة مديرين**للخطة** الاثنان الاخران قتلهما ستالين ؛ كما انه كان محافظا للينينغراد خلال المعركة . أذكر اكبر مقبرة مدنية في العالم . غير ان الحوار كان حواري نفسه مع شو إن لاي : مزيج ، عجيب عندنا ، من اتخاذ مواقف تاريخية هامة ، وتأكيدات كانت تكون نفسها ، لو انه خال محدثه غبيّا . كلمني عن

سلطة ماو الفردية المجرمة ، وعن تقدم الانسانية :«إذا وضع الرجال في بنطال من نمط واحد ، انقلبوا الى جنود ولاشيء سوى ذلك ! لقد فات زمن التعصب» وفجأة بعد ذلك ، تأكيد أساسي :«هنالك من الفرق بين الحزب الذي عرفت وحزب اليوم ، مثل الفرق بين موسكو التي عرفت وموسكو اليوم .» وأعتقد أن هذا صحيح . دون أن أذهب إلى أن الحزب انقطع عن أن يكون الحزب . كان تفكيره منصبّاً على ماو ، وارادته بغزو آسيا ، وأضاف : « علامَ يعتمد ؟ الأنتيليجانسيا ضدّه . إنه الديكتاتورية ولسوف يصل إلى الرأسمالية . إذا مات ، كان الفراغ . كل مايصنعه قائم على الخوف . إن الخوف قوة كبرى سيادة الرئيس ـــ قد ينتهي الصينيون الى التدخل في فييتنام ...(حيث لن يتدخل الاتحاد السوفيتي كما يعرف الجميع !) ـــ إنهم مع الحرب ونحن مع السلم ـــ سيادة الرئيس ، برأيك هل سوف تستعمل الولايات المتحدة القنبلة الذرية ؟ ـــ لا ـــ الصينيون يتكلمون دائماً عن الحرب ، لكنهم لن يحاربوا . حتى في فييتنام . انا لست على يقين من أن قوى السلام تستطيع صنع السلام ، غير اني على يقين من أن قوى الحرب ، مؤقتاً ، لاتستطيع القيام بالحرب ...»

«كان الثلج يسقط ، مثله هنا ، لكن ندفاً كبيرة .امام النافذة ، التي كانت نافذة ستالين ، استعدت خطبة قديمة : «**ستالين وهو ينظر من نافذة الكريملين الى سقوط الثلج الذي دفن الفرسان التوتونيين ، والجيش الكبير** .

« **سنة ١٩٣٤** ، كنت أفكر في الحديقة الصغيرة التي تحت

الكريملين ، بهذه البلاد الفسيحة الفقيرة ، التي يهددها من قرب قريب هتلر ، وهي منذئذ يشغفها الزحام مع امريكا الهائلة ! كنت أنظر الى الابراج القروسطية فوقي وأذكر حرس ناطحات السحاب الامبراطوري في مانهاتن . رأيت سهوب سيبيريا ، وأنوار المجمعات الصناعية الكبرى وهي تلتهب كبداية حريق .

« غير ان آخر ذكرياتي الروسية لاتتعلق بستالين ولا بخلفائه . طلب إليَّ أحد اصدقائي الذي هاجر في ١٩١٨ ، أن أذهب فأرى أمه في موسكو وأساعدها . وهو مافعلت . وبعد شهور من عودتي ، قال لي فجأة ، ونحن في السينما :« أمي الآن تشبه هذه العجوز التي على الشاشة ، أليس كذلك ؟ »

دخلت الباحة السيارة ذات الاطارات المسمّرة ، كي تقلنا الى بار ، وأضاف الجنرال وهو يرافقنا ، كما لو انه لايريد ان تنتهي تلك الضيافة المتواضعة الملكية ، قبل ان يستعيد الاساسي :

ــ أذكر ماقلت لك : إنني أعني انه لايوجد أي شيء مشترك بيني وبين مايجري .

ــ الشخصية الاسطورية سوف تقصي البلبلة .

ان رجال التاريخ لايشبهون أبداً ماتمنى لهم اعداؤهم . كما انهم لايشبهون أنفسهم أيضا .

ــ في السياسة توجد استراتيجية ، تدعى ولاشك التاريخ . وتكتيك . والحديث في الثاني ليس أكثر جداً من الحديث في الاسكريم[1]

---

(١) المبارزة بالسيف .

انت تعرف جملة نابوليون ، التي يعرفها كل الناس: «الحرب فن سهل، والسر بالتنفيذ.» لنفكر قبل ان نفعل، لكن العمل لايولد ادارة للفكر . انه شيء آخر . لقد قلت لك : القدر التاريخي لاينفصل عن كثير من الاخطاء . انا لم أخطىء كثيرا في شأن فرنسا ، ولا فيما يجب فعله من أجلها . مع ذلك ، اعتقدت ان روسيا غير قادرة على صنع القنبلة ؛ وسنة ١٩٤٦ ان الحرب تقترب حتمياً ؛ وسنة ١٩٤٧، ان فرنسا باتت لاتحتمل أبداً . وفي ١٩٦٠ قال اديناور ان الاشتراكيين اذا وصلوا للسلطة في بون ، فإنهم سوف يتعاملون مع موسكو . كنا معاً على خطأ ، لكني لم أخطىء عن قدر فرنسا ، لم أخطىء حين أكّدت ان بيتان لن يذهب الى الجزائر ، كنت على حق حين قلت : عندما تمر بمونتوار[1] سوف تنتهي الى سيغمارينجن[2] .يجب ألا نمّر في مونتوار . وقد يطرأ التفكير ، عن صواب ، بأن فرنسا يجب ان تعارض بأي ثمن إعادة بناء الريخ ، او ان نذهب فنحمل إكليلا الى الجندي الالماني المجهول ... ان الزمن يصنع التاريخ . واذا كان يمرّ تاريخ فرنسا باستقلال الجزائر فليمر ! أو بزواجنا والمانيا ، فليمر ! ولم يكن الاسف لاستقلال الجزائر مفرحاً . لكن كان يجب أن نفكر أولاً ، بأننا نحمل عبء فرنسا . وعلى عكس مايفكر السياسيون ، فالسياسيون لايصنعون شيئا . انهم يجمعون الاراضي ، بانتظار فقدانها . إنهم يدافعون عن المصالح ، بانتظار خيانتها . ان التاريخ يتحقق بطرق أخرى .

---

(١) حيث التقى هتلر ببيتان

(٢) حيث أقام بيتان وحكومته عندما انسحب الألمان من فرنسا .

« أولئك التاعسون يظنون اني وجدت نفسي في مواجهة السيد ميتران ، او الـ...ماذا ، من ؟ بوهر . وجدتني امام ماتحدثت عنه الساعة . كانت فرنسا روح المسيحية ؛ ولنقل اليوم ، روح الحضارة الاوروبية. لقد صنعت كل شيء لبعثها . شهر أيار ، قصص السياسيين ، لن أتكلم عنها كي لاأقول شيئاً ، حاولت ان أوقف فرنسا ، ضد نهاية عالم . وأنت تعرف .

كتب : لقد طويت بعد الان صفحة الامبراطوريات الاستعمارية . واسترسل .اننا نعيش نهاية أول مغامرة كونية . لقد بدأت في غموض بالاكتشافات الكبرى . اكتشفنا كل العالم ، ولم يكتشفنا أحد . ثم جاءت المستعمرات ، وبعدها الامبراطوريات الاستعمارية ، وأخيراً ، إلغاء الاستعمار . البدء يكون غامضا ، والنهاية واضحة . نهرو في دلهي ،١٩٤٧ . ماو في بيكين ، ١٩٤٨ . آخر العمالقة الثلاثة ـــ بل هما اثنان ونصف : امريكا ، روسيا ، اليابان ـــ هم عمالقة المحيط الهادىء، ءالهند موقعها في هذه اللعبة ، لا في لعبة اوروبا . وبعد ان قيل :« في القرن الثامن عشر ، دخلت امريكا وروسيا ، معا في التاريخ ...» سوف يقال : « وخلال الجزء الثاني من القرن العشرين ، حينما أخذت تختفي الهيمنة الاوروبية ...»

استأنفت : « هل فشلت ؟ سوف يرى آخرون . نحن ولاشك نشهد نهاية اوروبا : كيف تستطيع الديمقراطية البرلمانية ، توزيع مكاتب بيع الدخان ! التي تنازع في كل مكان ، خلق أوروبا ؟ حظ سعيد ، لهذا الائتلاف دون مؤتلف ! لكن أمن الضروري ان يكونوا بهائم ! ولماذا تكون

رسالة فرنسا رسالة جيرانها نفسها ؟ ولماذا يكون نموذج من الديموقراطية ، كدنا نموت منه ، مقدساً ، عندما يقتضي الأمر التغلب على العوائق الضخمة التي يواجهها خلق اوروبا ؟

انه ليس قادراً حتى عل التمكين لنمو بلجيكا !

انا لم أؤمن أبداً بأنه حسن أن نعهد بقدر بلاد الى مايجب تبديله عندما تكون البلاد مهددة . ويريدون أن أحكم بأنه حسن ان نعهد بأوروبا له ! ...

« انهم يهوون الديموقراطية منذ ان ولّت . غريب قفا اللافاشية ، أية ديموقراطية تلك ؟ ستالين وجومولكا وتيتو والبارحة بيرون ؟ الولايات المتحدة كان لها ملكها : روزفلت ، وهم يأسفون عليه . أوهام كينيدي أدينت . لقد انتخب على بعد شعرة من الفشل ، ولسوف تكون الحال كذلك في كل مكان . في بريطانيا العظمى ، عندنا ! في الانتخابات الاخيرة لم أحصل على تلك الاكثرية الا بسبب الخوف ، ولقد ذهب هذا الخوف . عندما ولدت الديموقراطية ، العامة ضد الطبقتين الممتازتين ، كانت خلقا كثيرا ! شيء انتهى . ولماذا لانحكم باكثرية ١٪ ، كما يقولون ؟ آه نعم ، لماذا ؟!

« أما عن أوروبا ، فانت تعرف مثلي ، انها ستكون اتفاقا بين الدول ، او لاشيء . إذن ، لاشيء . نحن آخر أوروبيي أوروبا . بعد المسيحية . أوروبا ممزقة ، لكنها وجدت على كل حال ، كانت أوروبا ذات الامم التي تكره بعضها ، أكثر حقيقة من أوروبا اليوم . نعم نعم ! لن تصنع فرنسا أوروبا ، وموت أوروبا يهددها بالموت .

هذا وبعد ، أكانت تلك اوروبا ، في عهد الاسكندر ؟ الاحراش وراء النافذة ...

كانت تمتد ، وراءه ، ذاك الصباح الى اللانهاية .

ــ الطلاب الغاضبون ، طوارىء عرضية ! لقد صنعت كراسي الاعتراف لطرد الشيطان ، ثم وضع الشيطان في كراسي الاعتراف . ان الديموقراطية الحق هي أمامنا ، وليست وراءنا : يجب ان نبدعها . الامة تستطيع كسب الوقت ، وبوسع الشُيوعية ان تظن انها تربحه . انا أوافق على ان تكون حضارة ما بلا أي إيمان ؛ لكن ماتضع في مكانه عن وعي او دون وعي ؟ طبعا ، لاشيء نهائي لو ان فرنسا تعود فتصبح فرنسا ... على كل حال ! حاولت مااستطعت . أما إذا وجب ان نرى موت أوروبا ، فلننظر اليهْ : انه لايحدث كل صباح . لكن كان يكفي جي موليه ...

« لقد شهدت فرنسا أياماً أخرى . قلت لك من قبل : ان الامور لم تكن على مايرام يوم معاهدة بريتينيي ، ولا يوم ١٨ حزيران . أوه !انها سوف تدهش الناس أيضاً ! لكني ، أكرر وأنا أتحدث عما صنعت ، لا عما يصنعون الان ؛ ان مايحدث لايعنيني .»

من يشك بذاك ؟ كلهم يعلم انهم لن يخوضوا في بعض رهان عظيم . وقد بات ، مافوق الحسبان ، لاينتسب بعد الان لفرنسا : انه ملك الآخرين .

وصلنا الباب . مدَّ الجنرال لنا يده ، ونظر الى اولى النجوم ، في فجوة كبيرة في السماء ، على يسار الغيوم ، وقال ساخرا :

ــ انها تؤكد لي تفاهة الاشياء .

انطلقت السيارة . مازال الثلج الابيض على الاشجار السوداء . تثبيت فرنسا ضد كل شيء ، والمقاومة البائسة ، كل تلك المغامرة اليائسة ، أوهام ؟ إلغاء الاستعمار ، ونهاية المأساة الجزائرية ، والرجل الذي كان يعني فرنسا المدمّرة وهو يتكلم ندّاً الى ندّ مع رئيس الولايات المتحدة ، أوهام ؟ اذكر نقابيا في فتنة **١٩٣٤** ؛ كان يحمل علماً أحمر وأسود ، والمسؤولون الساسيون يصيحون ، امام هجوم البوليس : «أطووا الاعلام ! — نعم ، نعم : لا نستعجلّن الامور ...»

ضياء الثلج ، قرون الظليل التي قامت فيه اولى النواقيس ، زمن الساعات التي سهرت على المسيحية ، في لامبالاة ابرتها الوحيدة ، الصافية . ساعة سنغور الجدارية الصغيرة تدق دقة في مكتب دكار المبرد والهواء الحار يرتجف خلف الشبابيك . هل الطقس جميل في دكار ؟ ترى هل يحلم بوحدة افريقيا زعماء الامم الافريقية الجديدة الذين لايفكرون بأوروبا الا من اجل المساعدة التي تقدمها لهم ؟ اسود طويل يلحق بحماره في نهج مقفر . ماتهم افريقيا وماو الذي استرد الصين ، والاهواء التي انقضت على الامم مثل كواسر عظيمة — ماتهم الامم نفسها ؟ ماتعني عند ماو ، ماتعني ملكة كازامانس ، زوبعة هذا الثلج العتيق العابرة ، ورفيقاتها الخالدات ، الغيوم فوق الابراج الباقية ، والمقابر التي زالت ؟ أفكر بمتوحشي بورينيو ، الذين يحملون جميعا في أدغالهم ، ساعات يد توقفت ، أفكّر أيضاً ، ولاشك فانا أخاف خوفاً غامضاً من اني رأيت الجنرال للمرة الاخيرة في بيت نهرو ، — وفي بناريس :

أنا موت الكل ، أنا ولادة الكل . الكلمة والذاكرة ، الدوام

والمغفرة ـــ وصمت الاشياء الخفية .

والغانج يحمل انعكاسات زرقاء وحمراء في الليل .

أتلُ الان مالايجدي من كلمات الحكمة ...

وقناديل ضئيلة في زنقات[1] بيناريس ، كما قديما في قلب نهيجات أور وبابل، وعواء في عمق الليل المرصع بالنجوم سنة**١٩٤٠** ، في بردفان ، كان عقيدنا ينتظر الاوامر ؛ وبما انه يجب ألا يدع الجنود دون عمل ، فقد أمر مقاتلي المصفحات المقبلين ، في الاستراحة ، ان يجمعوا النفل ذات الاوراق الاربع ... ملأ انعكاس القمر فجأة دبابتنا ، ونحن ننقض على الخطوط الالمانية ... ذات مساء من حزيران **١٩٤٠** ، امتلأ ورداً خلل القصف وضباب الصيف ، والفلاحون يحرقون عرمات الحشيش قبل الليل . والواعظ الذي قضى في جيليير ؛ في ليلة ثلج كالذي يسقط ، وكنا نتقدم في رتل هندي . كان يحمل البندقية الرشاشة . أبطأت كي انتظره وقلت له :«بماذا تفكر ؟ ـــ بلا شيء : أحاول أن أرى المسيح ...» عندما اراد ان يتلو الصلاة الاولى من أجل موتى الانصار . قال فقط : « إلهي يامن تصغي إليّ ، امنحنا الكرم ...» ويهبط المساء بلطف في زوابع الثلج! تلك هي نهاية زمان هذا الرجل ، وزماني . نهاية زمان مسيرة غاندي الى المحيط كي يجني منه الملح ، ومسيرة ماو الى التيبيت كي يجني فيها الصين . هتلر في ملجأ برلين ، وهو يسمع أول الدبابات الروسية ، ونهرو الذي يذكر نتف العشب في سجنه والسناجب التي انطوت على

---

(١) زنقة : الترجمة التونسية لكلمة impasse لانجد أفضل منها . وكذلك rue نهج و Ruclle نهيج .

نفسها ككرات . قطعات ماو معلقة على الجسر امام الرشاشات .
والفييتناميين يقهرون النابالم ، ونهود الاندونيسيات الدامية وقد غدت
شعارات الأحزاب التي تتناوب النصر . ليالي الهند الصينية المبتذلة ، انهيار
حجارة الضامة الصينية ، كمنجات بوتر واحد ، منع المرابين الشيتّي
وضجتهم كسحج حديد ، وشجرات وراء مستنقعات مثخنة
باليراعات . مدن الهند التي تركت للطواويس او القرود ، والضياع التي
صارت عواصم ، والعالم كالعينين الفوسفوريتين للقط الذي لايرى في ليل
دكار . والجيش الالماني الذي كان يغني على طرقنا ، والمدن الالمانية التي
دخلنا في أول **١٩٤٥** . بين كل تلك النوافذ التي قامت بها الشراشف
مكان الاعلام البيضاء .والجنرال في جنازة جان مولان .

«أدخل هنا ، ياجان مولان ، في موكبك الرهيب ...»

رسائل لندن الى الانصار والمظلات الملونة تضيئها نيراننا الليلة ؛
وأول رجال البوليس الالمان لما بات أول مسدس في جيبنا ؛ وحملات في
الفجر عبر خوار حيواناتنا التي استيقظت؛ ورفاق فرّوا ورفاق ماتوا ،
ومهاجع سجناء الجستابو ؛ ومعسكرات الابادة التي تهيم فيها ، تتعثر
أشباح إلياذتنا البائسة الموجعة ؛ وصاعقة ضلت في حديقة الايليزيه ؟
ومتاريس مدينة الجزائر ، وآخر مؤتمر صحفي تكتنفه أجهزة التلفزيون ،
على مسرح صالة الشرف الصغيرة ، حيث كانت تقام حفلات الباليه
التي تتلو عشاءات استقبال الملوك . .

وأغصان أشجار الجوز تلتوي على السماء المنطفئة . أفكر بأشجار
جوزي في الالزاس ، ودائرة الجوزات الميتة العظيمة عند قدم الجذع —

جوزات ميتة قدر لها ان تصبح بذوراً : الحياة دون بشر . لقد جهدنا في ان نعمل مايستطيع صنعه الانسان بيديه الفانيتين ، وعقله المدان ، في مواجهة عرق الاشجار العظيم ، الاقوى من المقابر . هل سيموت الجنرال ديغول ؟ ومررنا بالحرس الهزيل الذي يؤوي حارساً برشيشة ، وغادرنا حديقة لابواسري الجنائزية . الآن ، آخر عظيم هام بفرنسا ، هو وحيد معها : نزع أم تجلّ أم وهم . وخيّم الليل ــ الليل الذي لايعرف التاريخ

* * *

ويبدو ثلج كولومبي الميروفنجي ، الذي يسافر عبره القطار الى باريس، مدنيّاً وحديثاً... بماذا أفكر وأنا وحيد، ان لم يكن به؟— كأني في السيارة التي وجدتني أيضاً . فيها وحيدا ،بعد حديثنا في فندق لابيروز . لم يتغير الا قليلا . لكنه فقد حواره القلق مع المستقبل :« — الان ، نصنع دولة هي فعلا دولة ، نوازن العملة ، ونحل المسألة الاستعمارية! »

رأيت خلال عشر سنين ، رجلا ينقضّون عليه . ورأيت الساعة رجلا أُسلم من شهور الى رسالة الوحدة ، يواجه نفسه ، وقدراً بات لايحميه منه شيء . قال لي عن نابوليون :« — في مجال الروح ، لم يكن لديه الوقت ...» وهو الان في سبيله الى أخذ هذا الوقت .

ساعات كل يوم ، يكتب ويشطب ، يعمل بلا ونى . جعل عنوانه كلمة أمل . لم يفتني أبداً كما فاتني اليوم . لم أحس أبداً الى هذا الحد ، ان ما يشخّصه لايصوره الا قليلا .

لم يجبني مباشرة عندما قلت له : ان وجوه تاريخنا الكبرى لم تخضع

إلا لما وضعت نفسها في خدمته . قال : « كنت خرافة أيضاً ...»

خرافة غريبة على كل تنزيه لشخصه : انه موجود قبلها . نعرف وجوها للخيالي ، مدفونة في الانسان على انتظار تجسّدها ، وهي تثيره في بعض الاحيان : قيصر يحلم بالاسكندرية ، ونابوليون، بقيصر . ولم تكن الانسانية بحاجة للطيور كي تتخيل الملائكة (التي هي الانتصارات اليونانية) ، ولا لفزّاعات كي تتخيل الاشباح . لقد انتمى الجنرال سنة **١٩٤٠** ، الى الخرافة ، باحتجابه وحضوره ، حتى باسمه ، لم يكن غير هذا الاسم ، ورتبة — وقد كانت تلعب دورها ضده ، لولا ان كل ماكان يقول ، والقليل الذي عرف عنه ، يناقض وجها لوجه كلمة : جنرال .

ولقد كان يشبه ، مع ذلك زعماءنا في الحرب الاخيرة ، لولا افتراقه عنهم **بكلمته** . كان يمكن ان نقارب بين نداء **١٨** حزيران وأمر المارن اليومي — لو ان جوفر سجل الثاني ...

كما أننا لم نسمع كليمنصو ، ومن بعد ، سمعنا عديدا من الاخرين ، اكثر مما ينبغي . معجم فرنسا الحرة لم يكن معجم المجلس .

منذ اليوم الاول ، لم يكن بقائد فرقة أجنبية ، ولا رئيس حكومة في المنفى ، ذاك الذي أجاب عن الماريشال بيتان . كان هذا يتكلم لغة اليأس . فيما قال الجنرال ، ان فرنسا رأت سواه ، وكانت هي المرة الاولى التي تتكلم فرنسا فيها بغير الكناية : وكانت تسمع . فرنسا لم تخسر الحرب ؟ لم يكن مايستمعون اليه هو إذن المنطق ، كان :«اصغوا إلي ، ان سماعكم لي ، يعني أني حية.»

لقد لعبت الايديولوجيا دورا في ثورتنا ، ذهبنا معه الى ان واضع العقيدة ، هو مؤلفها لاتجسيدها . سان جوست لم يكن يهتم بتطبيق **المؤسسات** ، كانت عقيدته الخلاص الوطني . وندّ **بيان** ماركس ليس نظرية ديغولية ، وانما بيان **١٨** حزيران .

الفرنسيون ، لا انا ، بالرغم من نكتة الجنرال — هم الذين ابتدعوا كلمة ديغولي ، مثل كلمة الستالينيين ؛ اما في الولايات المتحدة ، فلم يتكلم أحد عن الروزفلتيين . ولقد أراد الجنرال عبثا ان يلغيها ، لانها توحي بانتماء في مواجهة كلمة بيتانيين وعقيدة في مواجهة الشيوعيين مع أن الواقعة الديغولية ليست من نفس طبيعة العقائد نفسها ؛ والخرافة النابوليونية ليست نتاج القانون المدني . هذا وليست التومية[1] هي التي انقذت أورليان ، وليس **العمل الفرنسي** أو الشيوعية هما اللذان خلقا فرنسا الحرّة . والجانداركية لا وجود لها .

لقد وضع الجنرال ديغول يوم **١٨** حزيران مبادىء الخلاص الوطني . خاله الذين لم يسمعوه زعيماً لفرقة أجنبية غامضة ، ومدافعاً عن الوطنية التقليدية . والذين سمعوه فوجئوا . لقد ندر أن يتغنى أحد بفرنسا بهذه اللهجة الدورية[2] . وطنيته لاتمت إلى الشوفينية ، في بلاد اختلط فيها معناهما كثيراً . ولماذا خال كل هذا العدد من الفرنسيين تقليداً — وفي أحسن الأحوال استمراراً — إحدى تحوّلاتنا العميقة ، تحوّل الوطنية ؟ منذ مائة وخمسين سنة ، دعي هكذا ، وليس في فرنسا وحدها ، الشعور

---

(١) مذهب فلسفي ينسب للقديس توما

(٢) نسبة إلى الدوريين (اليونان)

بالتفوق الوطني . ولقد نمت الدولية والسلمية ، ضد الوطنيات ، أكثر منهما ضد الخصوصيّات ، التي تشبثت بالمناطق . وكان الوطن اليائس ، القميء ، الضائع ، يتمتم بنداء ماسوشي إلى فولكلور أو عظمات دالت . الوطنية التي تحدث عنها الجنرال على أنها بديهية ، تقوم ببساطة على الحرية : مكان الألمان في برلين ، وليس في باريس . كان ضد الفاشية ، على غير ماكانت عليه **رابطاتنا** . استمر الفرنسيون الأحرار بالمعركة (أتته بير حكيم برمز لم يكن يأمل به) ولقد أعلن من أول يوم أن الرهان لم يكتمل بعد . فرنسا التي ، كانت تظن نفسها حية وهي ميتة ، كانت تصيح بالكارثة : ولقد تكلم وأجاب عن هذا الشعور الرهيب ، الذي يجمع الفرنسيين ، للمرة الأولى منذ عهد بعيد . وفرنسا ، ليست صورة من ايبينال[1] ، وهم حين فقدوا فرنساهم اكتشفوا جميعاً أنها أيضا ليست كذلك . لقد تكلم بقوة لاعقلانية الرجل الذي يقول مايعرفه كل الناس ، ومايصمتون عليه كلهم ، عبر عن الحلف الذي يمنح الطرف المسحوق أبسط صيغة للحب : **أنت ضروري لي** .

موهبته لم تكن إلا في جعل فرنسا قريبة ومقنعة ، كما فعل القديس فرانسوا بالمسيح . الكشف عن الإلهي ، في أكثر الديانات ، هو أن تجعل الناس يحسون بحضور مالايمكن إثباته إلا بهذا الحضور نفسه . ومن نافلة القول أن فرنسا لاتنتسب إلى مافوق الطبيعة ، لكنها أيضاً بحضورها ، لم تكن تنتسب إلى التجريد وحده .

---

(١) مقاطعة في فرنسا شهيرة بالصور ، والأثاث ، وصناعة الأقطان

لقد جمعت فرنسا الحرّة كل الذين ضمّهم إلى تلك الفرنسا المرّة . لقد ارتبط كل امرىء بهذا العمل الذي بدأ ، بمساهمته نفسها أكثر من ارتباطه بهدفه .« أن تتزوج قضيّة عظيمة » ، لقد دعا الديغوليين إلى أن يتزوّجوا من فرنسا باسم من يأتيهم من الأطفال معاً ؛ ودعا معهم الفرنسيين الذاهلين لسماعهم من يؤكد لهم أنها ليست عقيماً . كانوا يريدون كل شيء ، في الوقت نفسه ديغول وبيتان دون سيغمارينجن ، وبشراهة شديدة لأنهم ماكانوا يملكون شيئا . كان هذا الماضي الأخوي ، الذي ينتسب أيضاً الى الخرافة، يمزج بين جان دارك والكونفانسيون ، وبين الديموقراطية المتسلّطة والوطنية . ترى هل اتخذ لوكلير اسمه المستعار من متطوع سنة ١٧٩٢ ، أو من خيّال ريفولي ؟ في نهاية الحرب كانت الفرقة الثانية المصفحة تعبر عن الديغولية أفضل من أيّ نص عقائدي . ومن الخطأ أن ننسى خطب الجنرال جيرو ــ وبخاصة تلك الشهيرة التي يعلن فيها بأن شعباً تضع ضاربات الآلة الكاتبة فيه المانيكور على أظافرهن لايمكن إلا وأن يسير إلى الهزيمة . إن شيئاً لايظهر مثلها مالم يكنه ديغول ــ ولا كيف جعلت الوحدة ، التي فرضها على المقاومة في لندن ، التحرير الجهنّمي ممكناً . ولقد وصف فيما بعد ، بالتعالي هاجسه في التجميع . غير أن هذا الهاجس عقّم الوطنية .

كانت إيديولوجيته ، وهي الأبسط ، محيّرة . كان يجب أن يكون زعيم فرقة ، أو وطنياً تقليدياً ، أو ديكتاتوراً ، أو فاشياً ، لأن الفصائل المعروفة ، هي أقوى من الوضوح بما لايقاس . ولو أن مؤرخاً أجاب ، قبل قراراته الأساسية ، عن السؤال التالي البسيط : « ماذا يجب أن يحاول ،

في الظروف القائمة، رجل يرى في مصلحة الامة قانونه الاسمى» لكان مؤرخاً عرّافة .

إن فرنسا مدينة له لإيمانه بها إلى هذا الحدّ : كان إيمانها به أقلّ . إن المصلحة العامة والنفع العام ، اللذين جعل منهما ريشيليو وروبسبيير ثوراتهما تبدوان سفاسف ـــ لأنهما اختلط لديهما في كذبة واحدة ، كل ماكان يقوله السياسيون . وليس سهلاً أن تعيش بعد الديموقراطيات التي تعودت أن تتنفّج مبادئها ـــ دون أن تعرف جيّداً باسم ماذا . أما الجنرال ديغول فما كان يتنفّج أبداً مبادئه ، أكانت جيّدة أم سيئة .

لقد تجرأ فدعا بالطارئات ، دكار ، وانتصارات رومل ، والعلم الهتلري على الأكروبول ، والهزائم الروسيّة ، إن إهتمامه بالتاريخ ، واحتقاره للسياسة ، وثقته التي بدت أحياناً وكأنها تعزية أمام نعش ،ولاؤه التي ارتدت من أول يوم رنين «اللاءات» الكبرى التاريخية ، ودائماً ، صوته الذي بلا ملامح ، تضافرت كلها ، منذ أن بدأ الحظ يدور ، كي تجعل من هذا الصوت ، صوت فرنسا ، هذه اللا المنعزلة أغدقت ثقة من نوع ديني . والثقة ليست إحساساً عقليّاً . وكذلك شأن رفض أنتيجون وبروميتيه . إنه لايعبر عن فكرة بل يضطلع بالبؤس والأمل معاً .«قوانين أشدّ الزاما وأعلى من القوانين الإنسانية ...» بديهية مقبلة «اشدّ إلزاماً وأعلى» من الحاضر . كانت الوسيلة الوحيدة التي تجعلنا نحسب الجنرال ديغول لوكليراً آخر . هي انتظارنا قائد دبابات بطل ، غير أن الخرافة حلت محل هذه الصورة ، بعد أن حلت محلّ صورة الجنرال الرجعي . وماكان ذاك دون صعوبة ، لأنها وجب عليها أن تبدع تقليدها الخاص :

لقد نسينا الرومان أكثر ما ينبغي لنا . إن الجنرال لم يقد شخصياً أيّاً من قوات فرنسا الحرّة . وماكان يقوله لم يكن صحيحاً لأن الحدث يؤكده : كان يغدو ديغول لأنه يتكلم تلك اللغة لم يكن جنرالاً فرنسيّاً يقاتل في لندن . وانما خلقاً تبدعه تلك الكلمات التي دون صورة ، بالمعنى الذي يغدو كل مبدع فيه خرافة تجلت عن أعماله .

إن الخرافة لاتقتصر على الإيماءات التي تعبّر عنها ، ولا على مايخدم هو ، أو مايخدمه . وخرافته كانت آخر تحوُّل في خرافة فرنسا ، التي لاتتجلّى الا بتحولاتها . بالرغم من أن مثل هذه الخرافات تعيش من الخيالي الذي يسبقها وجوداً ، وتملي نفسها بما يخفى على ماسبقها ـــ مثلما ينتسب أبطال الروايات الكبرى الى الخيال ، فلا يملون أنفسهم الا بما يميِّزهم عمّا سبقهم . ان الأسطورة ليست تقليداً للنغفة ، إنها الفراشة . تقمّص الأمم تقول الهند .

لقد جسّد التحرير هذه الخرافة دون أن يكون لديه الوقت لتهديمها . ولقد دفع فيليكس غوان الفرنسيين لاحتقار سياسييهم . ثم ولدت الجمهورية المؤقتة الفرنسية ، لكن لم تكن الاذاعة والتلفزيون تحت تصرّفه .

لقد ظلّ حركة تمرّد ، حتى انتصاره في الانتخابات البلدية ، ـــ إلا عند الجنرال ديغول . نصر أيضاً محدود ـــ أو أيضاً واسع ـــ إذا قورن عدد المناضلين بعدد الناخبين . كثيرون ظنوا أن كلمة تجمع تعني الارادة الطيبة ، الكشفيّة قليلاً : فيما كان التجمع عند الجنرال ديغول إحدى أوزن الكلمات ، بعد كلمة الوطن . لقد ذهب الذاهبون دائماً ، وقبل

ماركس ، إلى أن هذه الكلمة لاتخبىء غير الوهم أو الفشل . أو هل كان ممكناً أن نقنع بهذا الرأي الرجل الذي لم يحاول غير التجمع خلال خمس سنين ، وضد كل الانواءا ـــ وماكان جهده دائماً عبثاً ! « لايستطيع التاريخ أن ينسى اني استقبلت كل الناس في لندن .» ان أكثر الأهداف أهلاً لأن نصبو إليها ، هي تلك التي لانصل إليها أبداً ، إرادة الوحدة ، ومثلها العدالة ، وأكثر منهما . كانت إرادة التجمع ، عند أعداء الجنرال ، وهما من أساسها ، وهو ماكانت عليه الاشتراكية عند أعدائها ، حتى دخول لينين إلى الساحة . والوهم هو صورة الأمل عند خصومنا .

لقد اخترع فنسان اوريول القربوية : وهي مجموع أصوات الأحزاب القريبة من بعضها ، أي كلها تقريباً ضد الشيوعية والديغولية . وكان على الجنرال أن يقارب التجمع الشعبي الفرنسي (مع الحركة الجمهورية الشعبية مثلاً) فيدخل هكذا في نظام الأحزاب ، أو أن يرفض فيعدّ النصر لقوّة ثالثة ـــ تتهمه بالتحضير **لحزب واحد** .لأنها ماكانت لتدرك (ومثلها أكثر أعضاء التجمّع) أن الحزب الواحد ، كيفما كان ، هو عند الجنرال ، مغتصب للدولة . وكان يخشى خصومه كثيراً أن يجنح إلى القرار الأوّل . لكنه لم يتطلع إليه أبدا . نجح أم فشل ، كان يريد أن ينادي المصلحة العامة القائمة على الأمة ، التي لايستطيع أن يرى فيها وهما ، لأنه كان مؤمناً بتجربة حياته الرئيسية : لقد ألّفت فرنسا الحرّة بين قوى متنافرة في عمل عام . جان مولان نفسه كان يقول : سوف نناقش بعد النصر . عندما قال يجب لمّ السلطة ، رفض أن يجازف بالحرب الأهلية من أجل لمّها . لقد رفضها حتى حين أكدوا له أن التقاربات سوف تفسد التجمع

الشعبي الفرنسي ، إذا لم يدع إلى التمرّد . منذ السادس من شباط ، كانت حرب إسبانيا بخاصة ، خطر الحرب الأهلية ــ وليس خطر الصدام ، وأنما أن يجعل من البلاد ، عبر عشرين أو ثلاثين سنة ، بلاداً متخلفة ــ أحد العوامل الكبرى في تاريخنا ؛ البرلمانيون أنفسهم ماكانوا ليقبلوا به أيضاً ، وإذا لم يكن الجنرال مديناً له بالنصر ، فقد بات مديناً له بالعودة .

لأن الذي عاد سنة ١٩٥٨ ، هو جنرال التحرير وليس رئيس الجمهورية الفرنسية المؤقتة . وانقطع النظام . بعد ديان بيان فو ، وبعد إضراب البوليس ، عن أن يكون نظام جمعية ، أو حزب ، صار نظام الإهمال ، كما كانت عليه الجمهورية الثالثة بعد الهدنة . ولقد أخطأ الرئيس روزفلت حين خال أن فرنسا قادرة على العودة إليها : لقد أدينت إدانة الأمبراطورية بعد سيدان .

لقد كافح الجنرال ديغول ، في نظام الاحزاب :

ضعفه . وأولاً عجزه عن مواجهة مصير لايجهله أحد : نهاية الأمبراطورية .

عدم مسؤوليته .

ارتفاعه بالتسوية إلى مستوى التقنية الحكومية ــ وهو مادعوته التوفيق بين النظريات المتعلقة بالدفاع الوطني بوضع نصف ــ جندي في نصف ــ دبابة .

تأثيرات الأجنبي المتناقضة .

الطابع المأساوي الذي اتخذه تتالي الحكومات . والتعاقب المعقول يقوم على اليقين بأن المعارضة إذا حكمت تتم سياسة من حلت محلّهم ،

عندما تقتضي ذلك المصلحة الوطنية .

لقد كافح العجز عن عقد السلم أو خوض الحرب ــ الحرب التي أخذت تجتاح إفريقيا السوداء ــ والعجز حتى عن تصور إرادة وطنية .

أفكار كفاح ، بالصرامة التي يمليها ، وعلى الهامش ، ربما كان الجنرال يفكّر بأن الأحزاب ماتت من ولادة **الأحزاب الواحدة** ، التي ماكانت لتستطيع منافستها إلا بمعنى للدولة شبيه بمعنى ريشيليو أو إنكلترا الفيكتورية ، غير أنها بدلاً من ذلك اهتمت باقتسام الدولة .

ان الشعوب تمجّد «أساتذة الثقة» عندها : كولومب ، الصامت ، فريدريك الثاني ، بطرس الأكبر ، لينين ، وعندنا ، الكونفانسيون ، زعماء الحملة الصليبية الاولى ، ريشيليوا ، نابوليون إحساس لم يدرس إلا قليلاً ، لأننا نخلط بينه وبين الحظوظ المعقولة ، مع أنه يمت إلى الإيمان لا إلى المحاكمة وينطبق غالباً على سلسلة من الأعمال المتعارضة . هذه الثقة جعلت مسألة الجزائر « لاتعالج كما في السابق » ، حتى عند اعدائه .

وهكذا إستعاد طابعه الخرافي . ولقد انتخبه البرلمانيون ، في المرارة ، ليلة انطفأت ضجتهم للرحيل (لا المعركة ، لأنهم لم يكن لديهم حتى بوليس يواجهون به مظليّي الجزائر). كانوا يعرفون أنه لم يستدع أبداً الرؤساء جي موليه وبيني ، وفليملان رغبة منه بالمصالحة ، ولا من أجل الشرعية وحدها ، ولو أنهم لهم يدركوا أبداً مقته العنيد لخطر تسليم الدولة إلى حزب ، حتى ولو كان التجمع الشعبي الفرنسي القديم ، الذي تكلم في الجزائر ، لم يكن الذي انتخبوه : كان الرجل الوحيد الذي يوافق

الجزائريون والجيش على الاستماع ، بله الإصغاء إليه .« آخر ملجأ » ، الوحيد الذي استطاع أن يتكلم باسم فرنسا دون أن يدفع الناس الى هز أكتافهم ، ولقد أحسوا بذلك في نداء الرئيس كوتي . في المجلس ، ليلة عودته ، كانت فرنسا الموءودة ، وقد عثر عليها أعداؤه وخصومه معا ، لاتثق إلا به .

كانوا على حق دون أن يكونوا على يقين . لم يروا في وزارته وزارة انتقالية فحسب ، لم يكن اليمين في الجزائر يقول وحده :«ناصر بعد نجيب!» وإنما كانت أكثرية المناضلين الديغوليين تنتظر ثورتها . أما هو فكان على أهبة تطبيق أخطر قرار اتخذه منذ **١٨** حزيران **١٩٤٠**:

أن يعارض خلق أي حزب واحد .

كنا نعرف أن الأمور ستجري كذلك ، وكنا نجهل لماذا . سؤال سخيف ؟ هل وجد نفسه ببساطة غريباً على فكرة خلق حزب واحد ، غربته عن إحياء الحزب الراديكالي ؟ هل كان يفكر أن رسالة فرنسا التي يجهد في ان يجدها من خلال **الجماعة** ، والتي وضعتها حرب الجزائر أمام تجربة قاسية ، تتطلب منه هذا القرار ؟ بين حكايات تلك الفترة ، كانت حكاية «السلطة» أكثرها بريقاً . غدا الحكم ، عند الحاكمين ، جرماً فادحاً . ولقد أفسد كل سلطة ، خبراء العجز ، لأنهم يفضّلونه فقد استخدموه بعناية . إن الفرنسيين لايتصورون أبداً السلطة ، فالذي تعودوا عليه هو التجاوز في السلطة ، فكرة واضحة ارتبطت في لمعان إلى التاريخ ، منذ فيكتور هوغو حتى ديماس . ياللزمان المبارك الذي كانت لاتطاق فيه السلطة الديغولية ، وكان الجنرال «وأنا نفسي ، أيها السادة، دون أي

غرور ، يشتمنا فيه اسبوعياً عديد من الروي بلاس ، في لهجة ديكلو[1] ! لقد كادت المحكمة الاستثنائية الدنيئة أن تبرّىء سالان ... لقد كان الجنرال ديغول حتى رحيله ، بما فيه يوم الرحيل ، رئيس دولة شديد التمسك بالشرعية . كانت المراسم التي يرتدي القنصل بموجبها وهو يترك روما مع الجيش ، رداء المدينة ، ثم يستعيد رداء القنصلية بعد النصر ، جزءاً من صوره المألوفة : رداؤه الأحمر كان المادة ١٦ . رأيته يدافع (في بعض الغضب) عن الإعفاءات البلدية، التي مكّنت توبازا[2] ما من أفشال مشاريعه ، لأن «المجالس البلدية ، حتى عشرين ألفاً ، هي ادوات ممتازة عند فرنسا» ، كان يضيق بموقف مجلس الدولة ، لكنه يطيقه مع ذلك . كان يرى في مجلس شيوخنا أقل المؤسسات نجاعة : ولقد بدأ لعبة الطلب إلى البلاد تغيير صورته . ألم يرتبط دائما بسلطة يحددها ، نوع سامٍ من الحضارة ، يجب على فرنسا أن تثبته ، كما ثبّت هو الجمهورية ؟ .

كان يعرف العملية الفكرية الهيجلية . إن سيادة الأمة ليست سيادة مجموع الأفراد . إن الإرادة العامة ، السائدة بالفعل ، تحقق القدر التاريخي ، بموافقة أو دون موافقة الأفراد الذين يجهلونها أو لايهتمون بها (عملية تلائم عن سعة تمثل الحزب الشيوعي في البروليتاريا) أو كان يتعلق قدر فرنسا بالذين يهتمون بها؟ كان جوابه، وقد كاد يكون عدوانياً ، أن السلطة يجب أن تمارس عبر الدولة .

قالها مرّات عديدة . ولقد كان الاستماع إليه يوفّر كثيراً من سوء

---

(١) زعيم شيوعي .

(٢) بطل إحدى كوميديات بانيول التي ينقد فيها فساد بعض السياسيين .

التفاهم . غير ان البشر لايسمعون إلا مايعرفون عن ظهر قلب ... على الأقل هذا القرار ، الذي لما تفسره مذكراته ، وقد وضع قيد المشاورة ، أنه قال لي فيما بعد : « ــ قصة الفاشيّة الأبدية هذه ، هي غبية . إننا لادخل لنا في هؤلاء الناس . ان المنحدر الخطر لايؤدي بنا إلى الارتماء في الفاشية ، وإنما بالملكية » ولقد جرى أعداؤه ، حتى رحيله ، على تعريف حكومته ، بصورة غريبة ، على انها فاشية مقبلة . غدا يعدمون بالمجان .

كان يقول : « لماذا بحق الشيطان ، تتعرف الديموقراطيات البروتستانتية ــ السكاندينانية منها والأنلكو ساكسونية ــ على نفسها في «اليسارات» البحر المتوسطية التي لاتشبهها إلا قليلاً ؟ لماذا يعتقد كل هذا القدر من الناس أني أعدّ لدولة كلّيانيّة[1] ؟ والجمهورية ، والحريات الشخصية التي أقامتها ؟ أريد أن أفهم الآلية ..»

غير أنه التقى بالتلفزيون . وغير له طبيعته بالصور . وتلت صور الوزارات الجديدة . وحفلات توزيع الجوائز ، طيارته ، نقطة على الشاشة ، الى الجنوب ، وتلا تهاني العدم ، ميدان الجزائر . ونظروا جميعاً ، بعض في حقد ، وبعض في إعجاب ، إلى التاريخ يحل محلّ السياسة . ولقد رفعت الجماعة[2] يوم ١٤ تموز ، للمرّة الاولى في ساحة الكونكورد ، أعلاماً للزوال . وانحنى صوبي سفير ستاليني فقال لي بما يخلو من السخر :«هذا يؤثر ، حتى فينا ، نحن قدامى الثوريين ...»كان مشاهدو الشاشة لايشاركون في هذا المكر ، لكن ماهي العلاقة بين ماكانوا يشاهدون ، ومالم

---

(١) توتاليتارية .

(٢) الجماعة الفرنسية (أي دول الأمبراطورية الفرنسية) .

يشاهدوه في السنة الخالية ؟ كانت فرنسا ، بنهاية الأمبراطورية تلك وقد غدت عيد الاتحادات ، بمارسيليز برليوز وقد بعثت ، بالجزائر المضطربة وافريقيا الصديقة ، تغيّبها الشاشة الصغيرة . كانت المؤتمرات الصحفية تتحدث عن العالم ، فيما كان يجيب الصدى من قبل : وماشأنكم أنتم ؟ كانت الازدواجية التي تواجه بين الديغوليين وبين من ضد الديغوليين ، والتي لاسابقة لها ، إلا تلك التي واجهت بين الشيوعيين ، ومن ضد الشيوعيين (لكن الشيوعية هي أيضاً خرافة) تعكّر التحول الحاسم كما يتعكّر الإرسال . لقد دفع التلفزيون الديغولية إلى البيوت حين أدخل فيها التاريخ ، وبالطريقة نفسها التي فعل بها الراديو بصوت الجنرال ، صوت فرنسا . وماغيّرنا البرنامج ، لقد غيّرنا القدر .

يدعو السياسيون سلطة ما كان توزيع وظائف ، وانتصار عواطفهم . لقد اتهموا الجنرال بأنه أخل بالميزان بقوة شخصيته ، دون أن يفهموا أنه كان دائما نفسه ضمان قيمته الثابتة ، بشخصه أو بالتزامه . لو أن مظلّيّي الجزائر انتصروا لما عنى ذلك تعديلاً وزارياً ! لا ولا نصر جماعة فتنة ١٩٦٨ . ان السقوط في انقلاب لايشبه تقديم الاستقالة . وماكان ليستغرب أحد اغتياله من قبل حركة التحرير الوطني أو من قبل منظمة الجيش السري . والخرافة تتردّى الى قصة خيالية ، مثل البطولة ؛ لكنها تولّد اتصالاً في أعمق أعماق كل منّا . يخلط خصومه دائما بينه وبين الصورة الساحرة عنه ، ولئن أنكروها عليه أو شتموها عابرين ، فإنهم يعرفون أن الأمر آيل دائماً لقتل جوريس . الخرافة تغذي الخرافة : الرئيس في بزته العسكرية ضد جنرالات الجزائر ، والجنرال ديغول ، واقف كالمنهير ،

من أجل دخول رماد جان مولان إلى البانتيون ، في معطفه الطويل المغلق الذي لم يرتده منذ النزول على الشاطىء . لقد أبقت فعاله بين الحدثان وبينه . على صلة مشابهة لايحلّ محلّها شيء ، وبخاصة العقائد . وله بوسعنا ان نتصور الجنرال ديغول وقد عبرعن ثقته بكتاب ، لا بـ١٨ حزيران ؟

لكن ، كانت تنزلق ، تحت الخرافة شخصية من تجربة ومن انقياد ، تلك التي كانت تقول :«مادامت الأشياء على ماهي عليه» وكأنه يخضع لها ، وهو عازم على قيادتها . لقد وجب عليه ان يلائم بين دون كيشوت والساتشو فقد مكّنه هذا الزوج من الأكثرية التي تجعله شرعيّاً . لا في أن ينصّب نفسه حكماً بين ميول ، كما كان في الماضي ، وإنما بأن يكون معاً قوى تكاد تكون متخاصمة . ولو أنها متكاملة : الديغوليون المتحمسون من جهة ، أي كل المناضلين ، ومن جهة أخرى الجمهور الصامت الذي بدأ بالثقة وانتهى الى «ديغول ، للأسف !» كان يجهر بأن الديموقراطيات فقدت الهمّة التي تولد منها التجمّعات الحقيقية ؟ وانها تعيش الآن من الأكثريات الذهيدة . لدرجة انها جميعاً تحسب انتصاراً فرق خمس نقط ، خمسة وخمسون من مائة ضد خمسة وأربعين . في استفتاء الجزائر ، الذي اعلنت إبانه أوروبا وأمريكا ، ان فرنسا معه ، لم تصل نسبة التسعين بالمائة ، التي لم يكن يطمح بها ، إلى ثلثي المسجلين . ومن هنا كان نداؤه الدائم للتاريخ ، الذي يجيبه مرّة من اثنتين بالزمامير . ولقد كان هذا صنع الأكثرية المتحمسة ، لقد عرف هو شانزيليزيه التحرير ، وفرنسا معه ضد منظمة الجيش السرّي . وكان يتحرك منذئذٍ في مجالات ضيقة كالقدر . ولقد تساءل بصوته الساخر الأسود : «ولم لاتكون أكثرية النساء على

الرجال في المحافظات الساحلية ، او المواطنين الذين يبدأ اسمهم بحرف أ ؟» لقد أمل أن يجمع حوله ، من اجل مهمات تستهدف الخلاص الوطني ، جماهير ١٩٤٤ . ومن أين ولدت فرنسا الحرة والمقاومة ، إن لم يكن من استبسال تلك الجماعات الفقيرة ؟ يوم الانزال كان عدد من يقود من المتطوعين اقل من الدرك الذين تقودهم فيشي .

غدا الآن قدر فرنسا الذي اضطلع به المقاتلون ، ملكاً لشتات المصوتين الذين يقبضون ، دون ان يعرفوا ، على الشرعية الوطنية . ولم يغير بها شيئاً . كان عليه ان يقنع هؤلاء — كما لو أن فرنسا تلعب مستقبلها بالنرد . ولقد فشلت مع ذلك الوسائل التي استخدمها خصومه كي يحددوا ويكتسحوا ، هذا الشتات ، أو عدداً من الناخبين بمثل كثرته : من عازبين ، وشيوخ ، وجماعات خاصة ، لم يحاول هو أبداً شيئاً من هذا . كان يشعر ، أنه إذا لمس قلب فرنسا فحسب ، جاءته بهؤلاء المجهولين . وانه لن يثبّت فرنسا إلا اذا وصل اليهم، وإنه لايصل إليهم إلا إذا استهدف فرنسا . والذي لاشك فيه ، أنه أيقن بالمستقبل ، وهو على رأس تجارة جزيرة سان ، اكثر منه بواحد وخمسين بالمائة من المصوتين ... لكنه أعاد الأمة من قبل بدءاً من وسائل على بؤس قدّر معه ان يثبتها بإحكام قيادته لها . «يجب أن نصنع الأشياء بما لدينا ! أو هل تظنون أن هنري الرابع كان يتسلى في أيامه كلها !» حين أصغى لتسجيل خطاب بنوم بنه ، لدى عودته من الكامبودج ، بدا حائراً لدى سماعه صوت فرنسا الباقية على قيد الحياة ، كخادمة تجد لدى عودتها من السوق ، سلتها امتلأت بالنجوم . ولدى تثبته ، مرة اخرى ، من ان الفرنسيين ، الذين

يخلطون بين الدولة والإدارة ، يقبلون كيفما اتفق ، أن يتخذوا قانوناً لهم **المسؤولية السامية أما فرنسا — يعهد بها الشعب — فتمارس عبر الدولة .**

لقد استحوذت عليه فرنسا ، ولم تسأله . السائل اللجوج ، هو الدولة . كان يتكلم عنها كالقنصل بونابرت ، وكما يتكلم العلماء في العلم . ميدان صرامة ، تغذيه المغامرة . كان يعيب على القديس اوغسطين غياب العقل السياسي ، لأنه شبهها بجمعية من قطاع الطرق . ولهذا خال أن الدستور الجديد على مثل إلحاح الجزائر تقريباً . لاخلاص وطنياً من دون جندية إجبارية ، ولاجندية من دون دولة ثورية تصدر به مرسوماً . ولا أمة من دون دولة ، كما فهم هذا الأمر منظرو الأمميات ، الذين طالبوا بزوالها . والجنرال لايرى ، ولم ير أبداً في الدولة ، جهاز سلطة طبقة ، وإنما عامل الوحدة الوطنية المعرضة دائما للخطر : وكذلك كانت ترى الكونفانسيون . كان يقول ، إن أعظم خدّام فرنسا خدموها حين حوّلوا الدولة : ولسنا نتصور بونابرت ، قائدا عاما عند لويس الرابع عشر . الملكيات والجمهوريات أعطت صورة الأمة ، التي تصبح لولا الدولة جسماً دون روح ، ومفهوماً بلا تاريخ . كان يعتبر ، مثل ريشيليو ان مهمته الأولى ، هي خلق الدولة التي تخدم أفضل خدمة فرنسا وتثبيتها .

أو هل كان يختلف العمل ، والحذق ، والصناعة ، والتجارة في فرنسا سنة **١٦٢٠** ، التي ماكانت بذات اهمية ، عما كانت عليه في فرنسا **١٦٥٠** ، أقوى ملكية في المسيحية ؟

« — عندما يتفاهم الفرنسيون ، أوه! عندها !» كان يعاني بقوة

إحساساً بتحول تاريخي عظيم لاتأتلف معه دولة السياسة والأوهام ، الضائعة . كانت دولته تقريباً نقيض الإدارة . هذه تدير مايستمر ، والدولة ، مايتحول . إنها أداة صيرورة الأمة ، وأقوى وسيلة لتضافر قواها .« ـــ لم يصنع احد شيئا ذا اهمية منذ نابوليون ...إلا عدم فهم أي شيء عن دولة تنتظر منها كل شيء ، حتى الحق بالسعادة ...» لقد تعلّق بشغف بنجاعة هذه الآلة السامية ، العارجة ، كما تعلق من قبل باستخدام فرق المصفحات . كان يرى فيها اكثر من آلة . بنية حيَّة في غموض وسجينة ، يجب إنقاذها من العطالة والنمطية ، واقطاعيات أرباب العمل أو النقابات ، والأوهام ـــ أي من كل مابوسعه أن ينافس الدولة . لقد حلم بها تاريخاً شبيهاً بتواريخ الحرب ، التي هي تواريخ الجيوش اولاً . ولقد كتب تاريخ الجيش الفرنسي . ومع أن ضباطا عديدين بحثوا في الاستراتيجية ، فإن مؤرخ الجيوش الرئيسي ، ديلبروك ، ليس عسكرياً ، وإنما استاذ . لقد نظّم ونما استخدام القوس والقربينة ، على مانظم ونما عليه استعمال الدبّابات ، وتحولات الحرب الحاسمة هذه ليست مع ذلك عسكرية ، مثلاً التجنيد الذي أقرّته فرنسا بإعلان «الوطن في خطر» ومنه أتت التعبئات العامة . لقد اخترع الاسكندر مثل نابوليون (ويبدو بالطريقة نفسها) تشكيلاته العسكرية والمدنية معا ، خيالة الهيتيريا[1] وجهاز ادارة المناطق المحتلة . قال الجنرال ديغول سنة ١٩٦٠ : «إن دولتنا متخلفة نصف قرن عن تقنيتنا ، بل وعن مفاهيمنا السياسية » . ولقد اصلحها في سنتي

---

(١) جمعيات يونانية سرّية .

١٩٤٥ و١٩٥٨ ، أقامها من أجل بناء **الجماعة** . «والآن يجب أن يصنعوا دولاً . إن كانوا قادرين على ذلك ». وماكان بناء الدولة بأسهل من خلق جيش الفرق أو مجلس الشيوخ الروماني . لقد اهتم بتكوين المحافظات مثل تكوين الجيش الذي كان ينفق عليه شارل السابع . كان يعرف كل المحافظين ، و«اختراع» أولى الحريات البلدية مثل معرفته لأول ضريبة دائما ــ أو الضمان الاجتماعي . قال لي أحد وزرائه مجهداً : «يودّ لو يفتح يينا[١] كل صباح !» وقال هو :«كانت سلطة الدولة ، صمّاماً ، بين احزاب تستبسل لاكتساح الاكثرية ، حتى تحكم في مسائل تجهلها» .

ظل عالم النقابة على الهامش ، بالرغم من الخمسة عشر الف صوت التي أخذها من الشيوعيين . ولقد كان الجنرال يرغب ان يعيد معه الصلة التي قامت في لندن . منذ عودته أرجع للنقابات حرّياتها . كان يرى فيها . تمثيلاً اكثر حرصاً من الأحزاب على التعبير والدفاع عن مطاليبها الحرفية . غير أن أهداف لندن المشتركة : ضد النازية ، والنصر ، باتت لاوجود لها . كانت القطيعة حاسمة مع ليون جوهو منذ ١٩٤٦ . فهو حين تدخل بقرار سياسي ، عَبّر بشكل صارخ ، عند الجنرال ، من المعسكر الشعبي الى معسكر الإقطاعيات الجديدة . ولقد أجاب جوهو ، عن رفض الجنرال لاستقباله ، أن هذا هو عدو الطبقة العاملة ، مع أنه ان يرفض، في الأحوال نفسها ، استقبال رئيس نقابة أرباب العمل ، وبذات الطريقة تماما .

---

(١) مدرسة الإدارة الوطنية . E.N.A.

لكن المعارضة النقابية سنة ١٩٤٦ ، وبعد ١٩٥٨ ، لم تعرض الدولة للخطر أبداً ــ حتى ولا نمو البلاد . والديموقراطية تتضمن المعارضة . والذي لاشك فيه ، أن الجنرال كان يفضل معارضة اخرى .

إنه يفكر أن المرء يفضّل دائماً معارضة أخرى .

ولقد واجه مبكّراً معارضة الصحافة .

كانت الجرائد ، وهي تهاجم دون هدنة ، باسم الديموقراطية الفاضلة ، والأخلاق السياسية ، فاشية الغد التي وصمت بها الجنرال ، تعبّر خلال سنين ، عن رفض مألوف لدى المفكرين ، ضعيف في البلاد ، باطل لدى الجنرال . ذلك أن الشيوعيين وحدهم كانوا يعرضون حكومة بديلة ــ لايستطيعون وحدهم أن يفرضوها .

كان مايوجّه للجنرال من تمثيل نفساني ، أو بالأحرى الكوميديا الايطالية لما لاينضب من :«أعد عليَّ هذا!» يغدو اوضح من شهر الى شهر : ويكتشف المؤرخ أن الانتيليجانسيا والسياسيين لم يؤمنوا أبداً بالثورة البروليتارية ، أو بالعودة إلى الجمهورية الرابعة ، التي كان يبدو عليهم الاستشهاد بها دائماً . والحق أن أحداً لم يقدم بديلا في الظروف الخطرة . وعلى « ــ ماذا يجب أن نفعل » وهذه المقولة من العمل ، كانوا يجيبونه دائما : بمقالات .

كان المفكرون لايخرجون أبداً من حوار الطرشان فهم بين : فاشيين ! وجيبيبو[1] ! معارضة «عقائد» غبية ، لأن الديغولية ، وهي

---

(١) البوليس السوفييتي .

تقنية انقاذ ، وجواب عن طرح فرنسا للمناقشة ، ليس فيها مايجعل — منها منهجاً . لقد شملت الجمهورية الأولى ، واشتراكية الثانية مناهج ايامهما . ولقد عالج وضعهما ماركس ، لكنه في السوربون وفي سواها لم يخلف برودون أو باكونين : لقد خلف **العمل الفرنسي** وتحت عيني الجنرال ، الذي عرف جيداً هذا الحزب . إن فكره الريّاب لايلتبس بأي منهج . إن الكلمة والفكرة لديه مختلفتان ، فقد دعا حكم الأحزاب ، طويلاً ، :«بالمنهج» وكان اهتمامه بما هو التاريخ والدولة أو نفسه ، أقلّ من اهتمامه بما يجب ان يفعل بها . لقد أيّد بقوة بودا ، حين تلوت عليه منه : «اذا رأيت صديقك اصيب بسهم ، هل يجب عليك أن تتأمل بطبيعة القوس ، أو أن تنتزع السهم ؟ كان يريد سلطة فرنسا مثلما يريد ماركس او موراس سلطة البروليتاريا أو الملكية ، غير ان فرنساه لم تكن مفهوما . كان حواره مع التاريخ ، أقل منه مع الخلاص الوطني .

إن نصر الماركسية لايرجع يقيناً إلى أنها هدت الغرب ، وإنما لأنها جعلت عند هذا العدد من الغربيين ، من المسألة التي طرحتها ، المسألة الاساسية — المنظمة . غير أننا لانواجه عقيدة ، حتى ولو كانت عظيمة ، بعمل ،حتى ولو كان مثالياً . والجنرال لم يعلّ بمعضلاته ، وبخاصة معضلة الدولة ، على كل إعتبار آخر : إن الإنضمام الى افكاره ، يمرّ بالانضمام الى خرافته ، وغالباً مايلتصق بها . إن مجال المراجع الماركسية هو غريب عليه . إن إعتبار التاريخ لديه قدراً ، يذكر بتاريخ روسو ، وهو لايحسب المستقبل معيناً ، بل عدّواً . ولايكفي اي مسار تاريخي ، إلى إعادة فرنسا إليه وتثبيتها فيه . والماركسية تتفاوض بعد الآن مع الفعل

الوطني الخفي الذي يراه الجنرال في قلب القرن ، ولو أن أحداً لايحيط به . أهو وارث الأحزاب ؟ الجزائر التي لم تكن أبداً أمة أصبحت أمة . الفييتنام ، وليس يهم أي منهما ، سوف يصبح كذلك[1] . وفي افريقيا تصعب ولادة الفيديراليات ، فيما تعجُّ الامم . والأمة لاترى أبداً في الجنرال عدّواً لها . لقد سمّاه لي ماوتسي تونغ قبل ان يسمّي فرنسا . والماضي يعطي موقف الشيوعيين الوطني ، وضوحاً لايعرفه الحاضر أبداً . لقد حاولوا سنة **١٩٤٥** أن يلحقوا بهم حركات المقاومة باسم شيوعية وطنية وليبرالية ، شبيهة بربيع براغ . أي شيطان يعتقد اليوم أن ستالين **١٩٤٥** كان يطيق ربيعاً لباريس ؟ ولا نعني تلك الورود ، وإنما الستالينية الحقيقية ، والجنرال رأى ستالين عن قرب .

عندما رفض لتوريز وديكلو الوزارتين الاساسيتين اللتين كانا يطالبان بهما ، قال لهما : «ـــ انتما اخترتما ، أمّا أنا فليس لي الحق بالاختيار» . وما خالاه خداعاً ، هو فكره نفسه . وإلى أيّ حدّ كان يأمل ، إذا لم يكن باستيعاب الشيوعيين في الدولة الجديدة ، فبالتوصل على الأقل الى **تعايش سلمي** يساعد فيه الميثاق الفرنسي السوفييتي ؟ لقد تبعوه الى لندن ، والجزائر ، وفي التحرير . وليس دون نيات مبيتة . لكن الميليشيات الوطنية حلّت ، دون أن تحلّ إعادة البناء .

لقد نقل ملاحظة لينين : «لم تنته أية ثورة إلا حين قوت سلطة الدولة» . وما كان يجهل إلى أي حدّ شهّر لينين بالدولة مثله مثل انجلز ،

---

(١) الكتاب قبل وحدة الفييتنام .

ومثل ماركس، فلقد قرأ ما تعلق بالدولة . كان ينظر أحياناً إلى الشيوعيين، كما ينظر الماركسي إلى المثاليين . قصة من هؤلاء وقصة من أولئك . كانت رؤياه تحيّرهم ـــ مثل أي شيء، عند الخصم، لا ينتسب الى الرأسمالية أو اليمين . وهم كانوا يحيّرونه . سمعته يسائل نفسه، اكثر مما يسأل ديكلو:
«ـــ كيف ستكون الشيوعية بعد خمسين سنة؟ـــ دائماً نفسها!»
أجاب بعزم المرح التولوزي . حتى إذا ذهب، سألني الجنرال:
«-أيعتقد بذلك؟-نعم: أنت عدو لهم، ومايقولونه للعدوّ يغدو دائماً صحيحاً- هل يستحق هذا كل العناء الذي يكابدون كي لا يؤمنوا بفرنسا، وينتهوا إلى الايمان بروسيا! انهم مع ذلك يشتغلون ويشغّلون، وفرنسا بحاجة إلى كل الناس».

وحين لم يبق لديه غير خطّ وحيد لوحدة الدولة، أثناء إعادة البناء، اضطر للعب مع غشاشين، دون أن يتنبأ، وهو الذي تنبأ بأحداث كثيرة، بأنهم سوف يحملون خرابها منذ افتتاح الجمعية، وكان على حق حين اعتقد بأنهم لن يصنعوا الثورة. لكنه كان يحتفظ بذكرى الأحزاب من قبل الحرب؛ وذكرى الشيوعية التي عرفها في لندن، غير انه لم يجد الأولى، فقد ضعفوا، ولا الثانية التي يتصور كل واحد منها، ماعدا توريز، بأنه لينين، ويرون فيه هو كيرينيسكي. ولقد ولدت الديموقراطيّات الكبرى من إجماع، لم يعش في أي مكان في وجود حزب ستاليني قوي، يدّعي أنه من الديموقراطية نفسها، وحين لا تكفي قوة هذا الحزب لاستيلائه على السلطة، فإنه يغدو قوة على قدّ تخريب الدولة، لأن الورقة السياسية، وحتى البرلمانية، لاتنتظم بالنسبة إليه، وإنما بالنسبة للستالينية. واليمين الحقيقي

اختفى ، حلّت الفاشية محلّه بالأمس ، واليوم الكولونيلات ، وهم مستقلون ادعوا أنهم ليبراليّون أو ليبراليون ، ادعوا انهم مستقلّون . كانت الاشتراكية في الماضي ، العدالة ، والدولية ضد النظام والجيش ؛ ويطالب الستالينيون بالنظام ، والوطن والجيش والعدالة ، في مزاد دائم . وهم لايغامرون بشيء هنا لأنهم يريدون تهديم الدولة ؛ والأحزاب ، تغامر بكل شيء ، لأنها تريد تثبيت الدولة أو إصلاحها . وما أن انتخبت الجمعية الوطنية التأسيسية ، حتى لم يبق من اللافاشية ، غير دمية ستالينية ، أو هل آمنت الحكومات الأوروبية ، حقاً ، باستئناف حوار مع الشيوعيين قطعته الحرب؟ وهؤلاء ماكانوا يشبهون اسلافهم الضعفاء ، إلا كما تشبه روسيا التي سادت نصف أوروبا ، الاتحاد السوفييتي المحاصر سنة ١٩٣٦ . إن أحداً ، لم يفهم في الغرب أن الأحزاب الشيوعية في الجبهات الشعبية للديموقراطيات الشعبية ، قد بدّلت طبيعتها ، لقد حملت الجمعية في ١٣ تشرين الثاني ، الجنرال ديغول بالاجماع ، الى رئاستها . وفي كانون الأول حرمت اجتماعات لجنة الدستور رئيس الجمهورية المقبل من كل سلطة ، والحقت الحكومة بالمجلس ، إن أحداً لايستطيع قيادة عربة عجلاتها متنافرة ، ولايبدل فيها شيئاً عزم سائقها — حتى ولو كان عزمه . والجنرال ديغول ، الغالب عاجلاً أم آجلاً من اجل فرنسا ، منذ ١٩٤٠ ، هزم هذه المرّة .

قطار في الليل ، والثلج المشتت لأن باريس تقترب ، وارتفع ذراعاي على النافذة البيضاء فوق كليرفو .... الرئيس سنجور كان يشعر ايضا باهتزاز العالم ، والاستاذ توريس ، في بيركلي ، او في مكتبي في الباليه — رويال : « مع ذلك انا انسان من هذا الزمان الغريب ... » قال في ايار ٦٨

«الطلاب، سوف يعودون اليها! كما حدث في كاليفورنيا!... ومالنا ولهذا!...» و «هل يربح ديغول هذه المرة ايضا؟ ومايعني ذلك حتى ولو ربح!...» و «كل هذا، ضيوف عابرون...» غير اني، منذ ربع ساعة افكر بالضيوف الذين حدّثني عنهم. لقد صنعوا قضية من جملتي: «يوجد الشيوعيون ونحن، ومابيننا، لاشيء!» حتى بعد ان انقطعت عن ان تكون صحيحة بمدة طويلة. ولو اننا، كنا، خلال سنين على الاقل، خصومهم الرئيسيين، والعكس بالعكس، ومن المدهش أننا لم نصطدم فعلاً أية مرّة. ولا تكفي سياسة الجنرال الخارجية لتفسير هذا الشيء، الشيوعيون يتهموننا بالفاشية، للتصدير: فقد كانوا يعرفون الّا فاشية الا بحزب واحد، وان قرار الجنرال لا رجعة عنه. وهو لم يفكر، بالمقابل، ابدا بحل الحزب الشيوعي، ولولا بعض المشاجرات بين المشرفين على النظام سنة ١٩٤٧، فإن هذا الحزب لم يقم بأي عمل جماهيري ضد الجنرال ديغول قبل ايار ١٩٦٨.

وهو ايضا ينظر الى هذا «الزمان الغريب» كفلكي يكتشف كواكب متقلبة النزوات، عندما يرى من اعلى، لكن كيف لايأتيه الماضي الا بأحداثه، وليس ما خفي منها، الحقيقة التي لاتقهر، ويبدو عليها انها تجسد الخيالي – تلك التي سوف تبقى بعد ان يموت كل الذين عاشوها؟.

وكانت صيحات الجنود الألمان وهم يكسرون اخماص بنادقنا في باحات المزارع، ويدفع البلاد كلها الى الجنوب دخان يوم قيامة الخزانات المحترقة، وفرنسا تهاوت، ترملت من نفسها، وصوت لندن يقول: «أدعوهم للحاق بي، بسلاحهم أو دون سلاحهم...» سلاحهم...!

ثم كان عري كارلتون جاردنز، والحوار مع الرئيس كاسان امام طاولات المطبخ التي سميت مكاتب: «– سيادة الجنرال، نحن لسنا طبعاً فرقة، فهل نحن الجيش الفرنسي؟– نحن فرنسا.» وبحارة جزيرة سان تحت، هم اول المتطوعين الكاليدونيين. لكن حينما وصل الألمان الى سان، لم يجدوا فيها رجلاً واحدا.

وكان الاسطول الفرنسي الذي اغرقه الانكليز في المرسى الكبير. «أما الفرنسيون الاحرار فقد اتخذوا، دون رجعة، قرارهم القاسي: لقد اتخذوا مرة واحدة القرار بالكفاح».

وعلى قمة رمال ليبيا الفسيحة المتموجة، كحطام يتلألأ على بحر، بير حكيم، ثم كان اولئك الفرنسيون الذين لم يقهرهم الالمان اخيرا.

ثم نزول اول فرنسي حر بالمظلة واعدامه انتقاما. وما من فيشي الا ويهيب بالجنرال ان يدين الاغتيالات الفردية ضد الالمان: كانوا يطالبون، وهم على بطونهم من هذا «الخائن» فضائل غانديّة. والجنرال لم يدن بدا اي فعل من افعال المقاومة. وفي هذه المحاكمات، لم يكن قاضياً، بل طرفاً.

وكان فشل دكار ــ غير أن أفريقيا كانت جميعاً على يقين، بأن فرنسا لم تكن في فيشي.

وكانت الخلافات مع تشرشل «اذا سحبت يدي، لن يبقى للجنرال ديغول حجر يسند اليه رأسه!» لم يتنازل لانكلترا، التي كانت قبل الهجوم على روسيا وضرب بيرل هاربور، تضطلع وحدها بقدر العالم... «كنت اضعف من ان انحني».

أعلن الراديوان البارحة، دخلت الجيوش الالمانية الى الاتحاد

السوفييتي، وكان من اسبوع الى اسبوع موكب الانتصارات النابوليونية ــ حتى الجدار ٠

وكان ارخبيل سان بيير ــإيــ ميكولون اسمالا مبعثرة كأنها فرنسا ٠

ثم كانت الخلافات، في دهشة الجميع، مع القوة الكلية روزفلت ٠ دارلان، او داركيه دوبيلوبوا ٠ وجيرو الذي يكتفي بنفسه ٠ وحوارات بيتان ليهي، او هيريو لافال ٠ والوحدات المقدسة بين كل الضائعين ٠

وقل احتقار الحلفاء لقوات فرنسا الحرة وللمقاومة، منذ ان غطت شبكات الاستعلامات بريتانيا والنورماندي، وملأ الغابة المتمردون على خدمة العمل الاجبارية، وقرر النزول على شواطىء فرنسا ٠ ولقد جرّب الجنرال منذ ١٩٤٤، ان يوّحد المقاومين والفرنسيين الأحرار، وان يخرج من الشجاعة المبعثرة، عملا تتفق عليه فرنسا ٠ واية جماعة من المقاومين، مهما اتسعت، كانت تمثل امام الحلفاء استمرار الامة؟ لقد أسس جان مولان، باسم الجنرال، المجلس الوطني، وحركات المقاومة الموحدة، ومات تحت التعذيب، دون أن يتكلم، وقام «شعب الليل» بنسف الجسور، وتدمير الطرق، والتخريب الذي املى التأخير على التقاء الامدادات الالمانية في النورماندي، مما وصفه الجنرال ايزنهاور بأنه لا يستدرك ٠

وجنت من ذلك فرنسا عجبا ٠ هل يعهد بممارسة السلطة في الأراضي المحررة الى بعض الفرنسيين، او الى جيش التحرير؟ لقد تطلع الامريكيون، دون كبير ثقة، الى تطبيق نص منسيّ من الجمهورية الثالثة: يعهد الى المجالس العامة تأليف حكومة جديدة ٠ وهو ما كان يأتي بشهور

من الفوضى — وكيف تقمع وقد زالت فيشي، إلا بالبوليس العسكري الأمريكي؟ وبأوامر من الأمجو[1] فقط، وهذا يشبّه فرنسا بالأراضي العدوة، ايطاليا والمانيا؟ كما أن تخيل خطط سوداء، وصراعات حقيقية مع حلفائنا هو عبث: ولو أن الأمريكيين عزموا على إقامة **الأمجو**، وإخلاء ستراسبورغ، من كان يمنعهم؟ كما أنه قبل الاعتراف بفرنسا المقاتلة، لا المتعاونة مع الألمان، يجب أن توجد فرنسا. من أول يوم في الانزال، انبثق مفوضو الجمهورية الذين نزلوا من لندن بالمظلات، أو ممن انشأتهم المقاومة. ولقد وجد الجيش الحليف في كل بلدة استعيدت، محافظ حكومة الجمهورية المؤقتة، وقد حلّ في مكانه منذ أيام أو منذ ساعات. لقد تعرفت فرنسا المحررة على نفسها بديغول، في حماس الشانزيليزيه الوقور الصاخب، كما تعرفت على نفسها في جنود لوكلير الذين وصلوا الى قوس النصر وقد غطاهم أحمر الشفاه.

كان ينتظره في السلطة بازار، جدير ببازار الخردة، اعلن اولا ان الحكومة المؤقتة لاتزدوج ابدا واين يقيم، في الايليزيه، ام في قصر البلدية، ام في سواهما؟ اقام في المكان الوحيد الذي يستطيع فيه المرء ان يكافح العدو والفوضى: في وزارة الحرب.

وتكاثرت البزّات العسكرية، غداة التحرير فطغت على بزات الانصار، وبدأت تحل محل المقاتلين في كرنفال خطر. لكن خلط القوات الفرنسية الحرّة بالجيش الاول، ادى دفعة واحدة الى تصفية الامور:

---

(١) حكومة الحلفاء العسكرية للأراضي المحتلة Allied Military Government of Occu-Pied Territories

الصادقون اخذوا يذهبون الى الجبهة او يعودون الى بيوتهم . وبقي الآخرون زمنا قصيرا . والحقت كل الاسلحة الثقيلة بالضرورة بالجيش ، فلم يبق منها شيء في المؤخرة . وادى حل الميليشيات الوطنية ، الذي قررته حكومة كان فيها موريس توريز وزيرا ، الى ان يفهم المتوترون ، ان الدولة ليس لها الا جيش واحد ، وان مكانه في الجبهة .

كان يجب اعادة بناء فرنسا بالاستمرار بالمعركة ، والتمكين لاستقلالها والهدف الاول كان يفترض اتفاقاً دائماً وحقيقيا مع الحزب الشيوعي . وكان ستالين يرغب ولا شك بالوفاق . والجنرال ما كان يعني بالاستقلال ، خضوعا الى الولايات المتحدة . سافر الى موسكو ورجع بالميثاق الفرنسي السوفييتي ، وتوريز في جعبته ، والعمال الفرنسيون يشتغلون .

وظن انه بهذا يساهم في تكوين الدولة . فاستيقظ امام مشروع الدستور ، الذي ليس فيه ما يطمئنه ، وليس فيه ما يثبت الاستقلال الذي اكتسحه . قالها في بايو . متأخراً ، عشر سنين .

سنة **١٩٥٨** ، كان هدفه الرئيسي دستورا جديدا ، وهدفه المباشر ، ان يجد فرنسا في مواجهة المأساة الجزائرية ، ايا كان ما ينتظر منها . ودون حرب اهلية. حذف المراقبة ، وسافر الى الجزائر .

ان يخرج ، قبل كل شيء ، بالمشكلة الجزائرية المعقدة ، من مشكلة الاستعمار . لقد رحلت انكلترا منذ عشر سنين عن الهند ، وامامها فرنسا التي حررت في الماضي العبيد ، والتي يجب ان تتوقف عن التعلق بالأمبراطورية الاستعمارية ، ان ترميها في الميزان : فتختار كل مستعمرة قديمة بين دخولها في الجماعة الفرنسية ، او استقلالها .

كانت نهاية امبراطورية الهند حدثاً هاماً، وكذلك كانت نهاية امبراطوريتنا . والقلق الذي ولد من حوار الاستقلال الدامي ومن تقسيم الهند، ظهر في الانتظار امام هذا اليانصيب الملحمي وهذا الحوار، بين الرجل الذي عاد فصار فرنسا المحررة، مع كل من المستعمرات الفرنسية القديمة .

ولهذا تصرف في الحرب وفي المفاوضات مع جبهة التحرير الوطنية، بهامش مختلف جذريا عن تردد الجمهورية الرابعة . في البدء ظن الاتفاق ممكنا (وجبهة التحرير لم تقطع ابدا الاتصال معه) . «ـــ للاسف، ان جعل فرحات عباس ذكيا لا يرجع الي...» وعندما قال لمجلس الوزراء بلهجة الشك: «ـــ القصد ان نعرف اذا كانت مصلحة فرنسا العليا تأتلف مع مصالح المستوطنين في الجزائر ...»، وظننت انه اتخذ قراره . وبالرغم من انه كان يكابد ما سماه بسرطان الجيش، فقد دعا، في إحياء ذكرى استعادة لوكلير لستراسبورغ، آلاف الضباط، الذين اصغوا لخطبته بصمت عدائي . وتصدّى مرة اخرى . وانتهى ببطء، وثقل، كما لو كان يتكلم في حرب أهلية: «ـــ منذ انْ اختارتِ الدولة والامة طريقهما، فقد حدد الواجب العسكري مرة واحدة . وخارج هذه القواعد، لا يمكن ان يوجد، لا يوجد، غير عسكر ضائعين ....»

حتى عصيان الجنرالات .

لقد التقت خرافته، والفكرة التي لديه عن الدولة وفكرته عن نفسه، انه يجسد مقاومة البلاد، والشعب، والفلاح الذي نقل له موزع البريد او رئيس البلدية موت ابنه في الجزائر، ضد «رجال وسائلهم سريعة

ومحدودة» يستمدون من الجيش ما اغتصبوه من اعتبار وقوة . فرنسا الكولونيلات . والناس، امام شاشات التلفزيون ينتظرون، وهم يعرفون انهم سوف يسمعون مرة اخرى لا ١٨ حزيران، «اذا كنت البس اليوم هذه البزة العسكرية، فإنما لأعني اني لست رئيس الجمهورية الفرنسية فحسب، وانما الجنرال ديغول ايضا»، «ولسوف تقاومون هؤلاء الرجال بكل قواكم، بكل وسائلكم!» ولقد كانت الديغولية ما فرّق، امام التهديد، فرنسا وحكومتها لسنة ١٩٦١، عن فرنسا وحكومتها لما قبل ١٩٥٨ : «يابلدي العزيز العتيق، ها نحن أولاء مرة اخرى معا في المحنة...» وهذه المرة بعزم .

ثم لم يواجه الموج العارم ــموجا آخرــ الا في ايار ٦٨ . وبالطريقة نفسها . لولا فرق ضئيل انه لم يحس تجاه الشبيبة الطالبية الشعور نفسه الذي احسه تجاه جنرالات الجزائر . لقد تنبأ بالعصيان العسكري على هذه أو تلك الصورة، وتنبأ أزمة الشباب : في الولايات المتحدة، وهولاندا، وايطاليا، والمانيا، والهند، واليابان، بل حتى في بولونيا . . لكن احد لم يتنبأ بالصلة القريبة بين هذه الازمة وحركة نقابية واسعة . لقد اتخذ الوضع مدى من القرن التاسع عشر، حفلات ومتاريس، تختلف عن الوضع الذي اتخذه اضراب عمال المناجم مثلا . غير ان الفتنة الطلابية كانت تبدي، كما في البلدان الأخرى ان طبيعتها العميقة ليست من الثورة : ارادت لنفسها ان تكون لاعقلانية، وهدفها ايضا . ولهذا لم يلتزم بها الحزب الشيوعي، رافقها . ولقد جمعت المظاهرة الكبرى كل القوى السياسية والنقابية التي يهيمن عليها الجهاز الشيوعي الثوري . كان يعتقد انه اقوى منه سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٧، وما كان الجنرال يجهل ذاك. ترك

الشيوعيون الثرثارين يتكلمون عن صنع الثورة ، فهم كانوا يعرفون ان احدا لايصنعها : يقطفها . وضع نموذجي بالنسبة للمحللين : الفوضى الثورية التي تسبق الاستيلاء على السلطة ، وانضباط واحد قائم ضد الدولة . ولقد اظهر ملعب شارليتي ما يجد الشيوعيون اذا سقط الجنرال ديغول : اقل من كرينسكي . لقد التقت تحت قيادتهم كل القوى التي ضد الديغولية القادرة على المعركة ، لا الوهم الشاعري... عدد البوليس كان كبيراً ، ووسائل القمع قليلة : لم يكونوا ملتزمين . ونعرف ما الذي كان له وزنه ضد الدبابات السوفييتية ، قنابل مولوتوف في بودابست : لا شيء . وما كانت الحكومة لتستخدم ، طبعاً ، الدبابات ضد الطلاب أو المتظاهرين ، لكنها كانت تستخدمها ضد الميليشيات المسلحة . ولهذا ما كان بوسع الحزب الشيوعي ان يتصرف بقنابل مولوتوف التي لديه ، مثله مثل الحكومة ودباباتها . كلاهما متعلق بالرأي العام . دونه لا ثورة ، وأيضاً لادولة .

كلاهما رمى نرده : الحزب الشيوعي ، الذي كان يجأر منذ زمن طويل «بالمشاركة بسلطة اتحاد ديمقراطي» اعلن عشية تدخل الجنرال : «ان شعب فرنسا يطالب النظام الجديد ، بأن تحتل الطبقة العاملة والحزب كل مكانهما» . كل المكان . والجنرال الذي لم يتكلم إلا لماماً عن الجزائر في خطبة العصيان العسكري ، لم يقل شيئاً عن الطلاب . تحدث للفرنسيين باسم الخلاص الوطني .

«لن انسحب . عهد الشعب لي بولاية ، سوف اضطلع بها .

«لن ابدل الوزير الاول ، فقيمته ، وصلابته ، واهليته تستحق احترام

الجميع . هو سوف يقترح عليّ التغيير الذي يبدو له نفعا في تشكيل الحكومة .

«وانا احل اليوم الجمعية الوطنية .»

كان هذا احلال فرنسا محل الحكومة . وبات الجنرال ديغول ، منذ تلك الدقيقة ، ضمانة الاستفتاء الشعبي ، الانتخابات الجديدة . ولقد وضعت الجمهورية الخامسة مؤسساتها الاساسية قيد التجربة . وانتهت الكوميديا ، حتى الثورية : فرنسا نفسها تريد أن تحدد قدرها .

«يجب ان ينتظم حالا وفي كل مكان العمل المدني . وهو يجب ان يقوم لعون الحكومة اولا ، ومن ثم المحافظين محليا ، الذين اصبحوا او عادوا فأصبحوا مفوضي الجمهورية ، وفي مهمتهم القائمة ، على التمكين قدر الاستطاعة لحياة المواطنين ودفع التخريب في اية لحظة وأي مكان .

«إن فرنسا والحق مهددة بالديكتاتورية . يريدون اكراهها على الخضوع الى سلطة تفرض عبر اليأس الوطني ، سلطة تغدو طبعا واساسا سلطة الغالب ، اي الشيوعية الكليانية . ولسوف يلوّنونها ، ولا غرو ، في البدء ، بمظهر خادع ، باستخدام طموح وحقد سياسيين على الرف . هذا وبعد ، لن يزن هؤلاء الأشخاص اكثر من وزنهم ، وهو ليس بالثقيل .» .

وفيما يتكلم غطّى قليلا قليلا الشانزيليزيه جمهور على كثافة جمهور التحرير . لقد تم رفع الأجور واصلاح الجامعة ايضا ؛ لكن الحرب الاهلية ، التي كانت تردّ فرنسا ، عشرين سنة الى وراء ، خسرت المعركة . والبلاد لاتؤخذ على حين غرة : إنه يجابه ، ولقد عاد صوت الراديو الذي بلا وجه فأطلق مليون أنسان على الشانزيليزيه . والحشد الذي تسجل هتافاته

سفارة الولايات المتحدة في الكونكورد ، كي تنقلها الى البيت الابيض ، وصل الى قوس النصر . وفي المساء بات الحزب الشيوعي لايطالب إلا «بديموقراطية حقيقية» . ومنذ الرابع استؤنف العمل في كل مكان . هل بوسعنا ان نتصور حكومة يرئسها اوريول في مواجهة ايار ٦٨ ؟ يضاف ، ولاشك ، اضراب البوليس؟

المذكرات تضطرنا للرجوع الى وراء . ان الاحداث التي تتصل بالأسطورة تعد بما لايحيط به التنبؤ ، ويرجىء القدر . في هذه الساعة ، يدير ، ولا شك ، الجنرال ديغول في فكره المحدد الحصين ، كما في مكتبه الذي اغلق ستائره على ليل الثلج . إنه يفكر احياناً في الأحوال ، وفي نفسه ، واحيانا بأن الاساسي سوف ينبثق ، **مذكرات الأمل**. لقد درس أوروبا التي تلت الحروب النابوليونية . «عندما تعود فرنسا فتصبح فرنسا ، سوف يبدأون مما صنعت ، لا مما يصنع منذ رحيلي» . من افكاره ام من ١٨ حزيران آخر؟ قال دائما ان ايديولوجيته لاتحسن الجري في ارض سهل . ان فرنسا سوف تبقى إذا اثبتتها الارادة الوطنية الى ان ينبثق ما لايحيط به التنبؤ : عندما دعي ريشيليو ، كانت قوة من الدرجة الثانية . ويفكر الجنرال : طارىء كل ما يتهدد عيانا فرنسا ؛ اما عن العالم الأعمى الذي يبلقنها[1] ؟كان ريشيليو لا يخشى ان تنتهي المسيحية .

«حاولت فرنسا ان تقف ضد نهاية عالمنا» **الأمة** بحرف كبير ، تلك التي اقنعت فرنسا اوروبا بها ، ولدت من «الوطن في خطر» من التحول الساطع

---

(١) إشارة إلى الأزمة البلقانية .

الذي املته الكونفانسيون . سنة١٩٤٠ كانت فرنسا معنية مباشرة . أو مازالت كذلك في هذا العالم الذي لاشكل له والذي تتصارع فيه آخر الامبراطوريات لحسمه؟ «انها سوف تدهش العالم» قال جيد في نزعه: «إنه الصراع الدائم بين ما هو معقول، وما ليسه...» في الانفاليد، في معرض المقاومة، اما عمود الذين اعدموا منا الفروم، وقد لفته الجرائد السرية، اعلن الجنرال الى منظمه، كما اعلنت انا سنة ١٩٤٥ : «الجرائد تظهر ما قاله المقاومون اكثر مما ينبغي، واقل مما يجب كيف قاتلوا، وكيف ماتوا . كانوا، ولا احد سواهم، يستمرون بالحرب التي بدأت في ١٩١٤ : كان المقاومون، شأنهم شأن جند بير حكيم، اولا شهودا» . وهو ايضا. وحيدا في كولومبي بين الذكرى والموت، كأساتذة فرسان فلسطين العظام امام نعوشهم، فهو مازال استاذ جمعية فرنسا الأعظم . ألأنه اضطلع بها؟ ألأنه خلال كل هذه السنين، أوقف عن كثب جثتها، وهو يعتقد، ويجعل العالم يعتقد، انها حية؟ منذ ساعة كان يبدو عليه انه يحملها عندما رفع ذراعيه امام النافذة والثلج: «انها الجنازة العظيمة» . لقد عاش بعد الذين كافحهم: هتلر وموسوليني، وبعد الذين كافح معهم: روزفلت، وتشرشل وستالين بإحساس جنرالات نابوليون حينما كانوا يقولون، حوالي سنة ١٨٢٥ : «في زمن الجيش الكبير ...» كل هذه الاشباح الصديقة والشريرة تلعب على البراح بأوراقها السوداء، بما فيها المهرّج . اوروبا التي تحترق، وانتحار هتلر في ملجئه، ووقوف القطارات وهي تصفّر طويلا في العزلات السيبيرية من اجل موت ستالين .. هل يفكر بأنه «عصر عظيم»، لا رجال عظماء؟ ان الامر هو كما بعد ١٨١٥ ، لقد استقال قدر

العالم . لكنه دائما على ثقة بأننا يجب ان ندعو الموضوع حين يتعلق بفرنسا بالمغامرة : ما لايحيط به التنبؤ . والحق انه لايوجد انسان دون احلام؟ وهو ايضا يفكر يقينا، في كبرياء مظلمة، بما لن يقوله : «اذا كان آخر فصل لما كان اوروبا قد بدأ، فإننا لم ندع فرنسا على الاقل تموت في الجدول . » .

لكنها ربما كانت بحاجة، كي تدرك ما يريد أن يورثها، لما هو أكثر من السلطة، لما هو اكثر من ترك السلطة : ان يموت .

كولومبي _ ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠

بعد عشر دقائق من الموت، غادر الطبيب لابواسري وذهب كي يعالج بنات عامل في سكة الحديد . وطلبت السيدة ديغول من احد النجارين ان يخرج الخاتم من اصبع الجنرال، وما كاد ينتهي النجاران من عملهما حتى دعتهما السيدة بليك، التي توفي زوجها، المزارع — ايضا... واليوم، في نهار التشييع المكفهر، احث الخطى تحت قرع جرس كولومبي الحزين الذي تجيبه كل كنائس فرنسا، وفي ذاكرتي، كل نواقيس التحرير . رأيت القبر مفتوحاً، وعلى حافته الاكليلان الضخمان : ماوتسي تونغ، شوإن لاي . في بيكين، الاعلام منكسة على المدينة المحرمة . في كولومبي، في الكنيسة الصغيرة التي بلا ماض، سوف تحضر رعية الكنيسة، والعائلة، وجوقة الشرف : جنازة الفرسان . قال لنا الراديو، ان

في باريس، على الشانزيليزيه الذي نزله في الايام الخالية، بدأ حشد صامت بالصعود. وهنا بين الجمهور، وراء الرماة البحريين الذين يؤدون التحية، تصيح فلاحة بشال اسود، كأولئك اللائي كنّ معنا في غابة كوريز: «لماذا لا تدعوني امر! لقد قال: كل الناس! قال كل الناس!» وضعت يدي على كتف البحار: «يجب ان تدعها تمر، سوف يفرح بها الجنرال: انها تتكلم مثل فرنسا». ودار دون كلمة، دون ان تتحرك ذراعاه، يبدو كأنه يقدم السلاح لفرنسا البائسة الامينة ـــ والمرأة تستعجل عارجة إلى الكنيسة، أمام هدير الدبابة التي تحمل النعش.

الشانزيليزيه

ظلّ الاعلام المائة يواري حامليها، ما عدا في الصف الاول. كل هذه الاعلام القديمة المبتلة، العمودية في الليل، في الصمت الذي تخشخش فيه الأوسمة في بطء وقد هزّها وئيد الخطى، تتقدم كأشجار غابات شيكسبير. قوس النصر وحده مضاء، والنهر يجري في ظلمات ما زالت فيها نجوم بعض الدكاكين. والليل مثلث وجوده: بالساعة وإنارة القوس، وبالغيوم العجولة التي يشرف مطرها على سيل البشر، الذي تحاصره سياجات كثيفة من المشاهدين على الأرصفة. ظلال تشاهد سيل ظلال اخرى. ليست تلك مظاهرة: من أول الشارع الى آخره، لايتكلمون الا بصوت خفيض. ليست تلك بالضبط جنازة: لانه لانعش. انها مسيرة مأتمية الى القوس الذي غدا قبرا، الى الراية الوسيعة التي تخفق امام مصابيح الدفاعات الارضية، وحزمها الضوئية الزرقاء

البيضاء الحمراء، التي يخيم عليها الليل، تظهر حتى الغيوم قطر المطر، كما تبدي اشعة الشمس دون اهتمام ذراتها الخالدة .

ويلحق مراسل لراديو لوكسمبورغ، والمكبر الصغير في يده بزميل لي، بوشوشة:

ــ ماذا يروي لك الناس؟

ــ النساء هن اللائي يتكلمن بالأحرى . كثير من الرجال، عندما اسألهم: هل صوت بنعم؟ يطردونني! هؤلاء صوتوا لا حتما؛ اما النساء فيقلن جميعا، الشيء نفسه تقريباً: «إننا مدينون له بهذا!» او «امطرت ام لم تمطر، سنمضي الى نهاية المطاف!» احداهن قالت لي: «رمي الزهور، يجب ان يكون من السيدة ديغول: إنها فكرة امرأة ولا شك . . .» واخرى، والاومانيته تحت ابطها: «اتيت اقول له وداعا» . وعجوز ايضا، قلت لها، ياللمسكينة! «أعطني زهرتك، اضعها مع زهرتي في الوقت نفسه ــ لا داعي لذلك: ثلاث سنين في رافنسبروك، ثلاث ساعات مطر، بسيطة .» وانت؟

ــ سجلت في الأرتال، عند بائعات البنفسج في الشاتليه، وعند بائعات الأزهار في الشوارع: كلها تتشابه . هنالك صبيان . يقلن انهم سوف يذكرون، علقت واحدة قالت لي: «خسارة الآّ يرانا!» .

كانت على خطأ: ان الجنرال الميت يصغي الى هذا الصمت الذي تدوسه، وقد اختلطت، مئات الوف الخطى . انه حاضر اكثر من كولومبي ما عدا، حين مدّت النساء اطفالهن، امام الدبابة حينما خرجت من لابواسري . اناس كثيرون يحملون شمسيات مغلقة (كي يفتحوها عند

نهاية الاحتفال؟) وجيشان جمهور يدوّم بطيئا، قادما من الشوارع، من البيوت، من المترو. وتوقف السرى الليلي، وضلت مرسيليز في المطر. ومر الاقحوان، والقرنفل، وشقائق النعمان، وباقات البنفسج من يد الى يد الى قوس النصر. هذه الزهور ليست ملكا لأحد: ان الارض تحيّي الموت.

واستأنف الموكب سعيه خطوة خطوة عبر الليل المأتمي. مائتات المعسكرات اللائي ما عرفن زهورا غير التي زرعنها لمعذبيهم، رافقن الموكب في صمت، بعضهن لم يكنَّ ديغوليات؟ الموكب سوف يرمي، الى الكل، زهوره البليلة.

كثيرون من الذين يتقدمون في بطء كانوا هنا في مظاهرة ايار ٦٨: كثيرون كانوا في الباستيل في المظاهرات العدوة، وكثيرون عندما نزل الجنرال ديغول الشانزيليزيه، امام الجنود الذين غطاهم احمر الشفاه. هذا الموكب يوغل اعمق كثيرا في الماضي، فيلتقي بالموكب الذي جاء يحيي نعش فيكتور هوغو. قال الشاعر **لا** لعشرين سنة من الامبراطورية، والهزيمة، والقمع. وابعد ابعد في الليل توجد طبعا **اللا** التي بلا عمر. الموكب يصعد كموكب طيبة الى قبرانتيجونا. والجندي المجهول الذي تتناوب فوقه الشعلة عاصفة، هو أيضاً من أولئك الصارخين **باللا** الذين يتعاقبون فوق طوفان احيائنا الليلي، فوق نهر موتانا تحت الأرضي. مع نساء كوريز السود وهن واقفات على قبر العائلة، تكريماً للأنصار الذين دفنهم المحتلون، بعد ان قتلوهم منذ قليل. مع الفلاحين الذين وضعوا كيلو من السكر عز وجوده، تحت الصليب الخشبي لمن اعدم من رفاقنا. كم من النساء!

الرجال لايحسنون حمل الازهار : حينما تعود ذاكرتنا الى اقصى بعيد ، تجد ان النساء اكثر من الرجال في تقديم القرابين ، حتى ولو عرضّن حياتهن للخطر . بوخنفالد وداشو يصعدان الى القوس المأتمي ، وكل اشباح الذين اختاروا قبول الموت . جنود دباباتنا ، وضاربات الآلة الكاتبة ، اللائي كن يخفين اجهزة ارسالنا ، وحشد ومعسكرات الافناء المعذب . لقد فقدت السياسة معناها : اعضاء المجالس البلدية الشيوعيون هم هنا ، والنساء اللائي يحملن علم صليب اللورين الصغير يشاركن بباقاتهن جاراتهن اللائي يحملن الاومانيتيه ولم يجدن ازهاراً . المسألة ليست الديغولية ، بل ولا فرنسا فحسب . الذين يدعسون في الليل الممطر لاينتسبون إلا الى الوصل الذي يتجلى عن هذا الميت بلا نعش . مثل أهلنا الذين صاحوا باسمه على عمود الاعدام .

واخذت شرطة نظام ، بشريط على الزند دون بزة ، تقنّي ، النهر الصاعد الى القوس ، لانه اضيق بكثير من الشارع . والساحة التي تلمع من المطر تعكس قوس النصر . والذين لم يستطيعوا اتمام المسيرة كوّموا ازهارهم تحت مارسيليز ريد . وتقدم الموكب وفتح هيبيون البونتشوكي يخرجوا منها الاقاحي . والعلم الكبير ، الذي تحاول الحمائم ان تلجأ اليه ، يملأ القوس المرنان ، باصطفاقه المبتل . وفوق الهيبيين ، قوائم المقاتلين النابوليونيين تضيّع في الظل سهرة الانتصارات . الاحياء يرمون زهورهم ، والشعلة قاعدة طوراً قائمة طوراً ، تطفيء ثم تنير وجوهاً تتصبب ماء .









الوحيد الذي يستطيع ان يجري حواراً مع رجل التاريخ هو الفنان .

وحده قادر على النفاذ إليه ورؤيته من حيث لايراه العاديون .

كل حوار تمّ بين الجنرال وأي صحفي كان مونولوجاً . وكذلك مؤتمراته الصحفية .

أدرك مالرو هذه الحقيقة ، وأن أحداً سواه لايستطيع حواراً مع الجنرال ديغول ، ينفذ فيه الى مكنونه .

تلك الغاية من هذا الكتاب .

أهميته أنه التعريف الدقيق بالديغولية ، في أسلوب مختلف عن المألوف ، يكاد يكون مسرحياً .

هذا وبعد فهو آخر حديث للجنرال .. قبل وفاته بشهور قليلة .

